مراجعات

الأَغَانِي كِتَاب الكُتُبِ

أ.د. عقيل عبد الحسين
كلية الآداب/ جامعة البصرة

مُلَخَّصُ البَحث

البَحـث في نوعٍ من القِصَص يُدعى القِصَص البَديلَة، أبطالُها المُهمَّشـونَ أو الثّانَويّونَ، مثل المَغمُورينَ، والنّسـاء، والفَارّينَ، وغيرهم. وهي تعبّرُ عن مشـاعرِهم، ورَغبَاتِهم، ورؤيتِهم. وتَتشـكّلُ خلالها هُوياتُهم، وتصـيرُ معروفةً للقـرّاءِ، ومُؤثـرة في المُجتَمَع والثَّقَافَـة؛ إذ هي تقاومُ بالـسَّردِ، القِصَصَ المُتبَنّاة رسـميًّا، وتزيحُها، وتفكّكُ سـلطتَها، وتحلُّ مَحلَّها، فاسحةً المجالَ للإنسانيّ، للحلولِ مكانَ الآيديولوجيّ، وللمُتحقَقِ للحلولِ مكانَ المُتَعالي. وهي تنشأُ في ظروفٍ تاريخيّة تتراجعُ فيها سلطةُ المَركز وآيديولوجيّته. ومن مجالاتِ ظهورِهـا في الـسّردِ العَرَبـيّ القديم، كِتَـاب الأَغَانِي، الذي أورد قصـص الثّانَويّينَ، من مُغنـينَ، ومُغَنّيات، ومَغمُورينَ، ونساءٍ، وغيرِهم لغاياتٍ لها صلةٌ بالموقفِ مِنَ السّلطَةِ، ومنَ الثَّقَافَة. وذلكَ جعله (كِتَاب الكُتُبِ)، أي الكِتَاب الذي يتضمّنُ كتبًا عديدة، وكِتَابَاتٍ مُتنوعة، هي كُتُب الثّانَويّينَ، وكِتَاباتُهم المُجسِّـدةُ لهُويّاتِهم، ولوجودِهم، ولمواقِفِهم النّقديّة، والإنسانيّة.

الكلمات المفاتيح

الأصفَهَانيّ، الأَغَانِي، القِصَص البَديلَة، السّرديّات الكُبرَى، الثّانَويّون

المَبحَثُ الأوّل
السّياقُ التّاريخيّ

في المفهوم

مـا كِتَابُ الكُتُبِ؟ **المَعنَـى الأوّل للكَلِمَة هـو المَعنَى الكَمـيّ**؛ فهو كِتَاب يُغنـي عن كُتُبٍ غـيرِه، كثيرةٍ، في مجالِه ويُعـبّر عن هذا الفَهم قولُ ابنِ خِلِّكَانَ: إنّ الصّاحبَ ابنَ عَبّاد كان يَستصحبُ معَهُ في أسفارِهِ حملَ ثلاثينَ جَملًا من كُتُبِ الأدبِ، فَلَمَّـا وصـلَ إليهِ هـذا الكِتَـابُ لم يكنْ بعـدَ ذلكَ يَستصحبُ غيرَه؛ لاسـتغنائِهِ بِهِ عَنهَا[1]، فالقَارِئ يجـدُ فيـه مـا يبحثُ عنـه، فـلا يجـدُهُ في الكُتُب الأخـرى، الكثـيرَة، إلّا مُوزَعًا مُشـتَتًا: طُرْفة هنا، وأخرى هناك، وخبرٌ هنا، وآخرُ هناك. أمَّا فيهِ فإنّهُ يجدُها، كلّهـا، مُجتَمَعةً في نظامٍ يختـارُه المُؤَلّف، كأنْ يكونَ نظامُ المئةِ صوت، التي سـألَ الرّشـيدُ مُغنّيَه، إبراهيمَ المَوصليّ، أنْ يجمعَها لهُ، فألَّفَ أبو الفَـرَجِ كِتَابـه عليها[2]. وهو، أيضًـا، كِتَابٌ يكونُ مُميـزًا، أو مُقدَّمًا على كُتُب المَكتَبَة كلّها. يقولُ ابنُ عَبَّاد: اشـتملتْ خزائِني على مئةِ ألفٍ وسبعةَ عشرَ ألفَ مُجَلَّدٍ، ما فيها سَـميري غيرُه، ولا راقَني منها سِـواهُ. ولم يكنْ (يفارق عَضُدَ الدّولةِ في سفرِهِ ولا حَضَرِه، وأنّهُ كانَ جليسَه الذي يَأنَسُ إليهِ، وخَدينَهُ الذي يَرتـاحُ إليـه)[3]. والقَارِئُ، هنا، ينشـغلُ به عن غـيرِه منَ الكُتُب؛ لأنّهُ يجـد فيه ما لا يجده في غـيره، وعـوض أنْ يبحث عمّا يريـد في عشرات أو مئات الكُتُب ذهابًـا وإيابًا، وبحثًا وتنقيرًا، يجلس إلى كِتَـاب واحد، ويسـتريح إليـه، ويطمئن إلى أنّ حاجته، من الأخبار والقِصَص والنّوادر والأشعار، موجودة فيه.

والمَعنَـى الثاني لكَلِمَة كِتَـاب الكُتُبِ، هو المَعنَى النّوعيّ، أي أنّه كِتَابٌ يجمعُ قدرًا كبيرًا من المَـادَّة الأدبيّـة، مُختَلِفة النّوع: (خَـبَر، قِصَّة، نَادِرَة، خُرافَة، تَرجَمَـة.. إلخ)، في تبويبٍ. وهو ما يَقصـدُه جُرجِي زيـدان بالقـولِ إنّ: أهميَّة كِتَابِ الأَغَانِي فيمـا حَوَاه من التّراجـم والأخبار، ويكادُ يكـونُ مُنفـرِدًا بها، ولولاهُ لضاعَ كثـيرٌ من أخبارِ الجاهليّة، والإسـلام، وبني أُمَيَّـة. وفيه أخبارٌ عن أنـاسٍ عَاصروه، وحدّثوه بمـا عَلِموا، فدوَّنَه. وهو مُنفـرِدٌ بتدوينِه. وفيه ما نَقَلَهُ عن كُتُب ضاعت[4]. وَلَعَلَّ آخرين كُثُرًا يَشـتركون مع جُرجِي زيدان في عدّ غـزارةِ المَادَّة الأدبيّـة، والتّاريخيّة، وتنوعِها في الكِتَاب، ميزتَه، وسـببَ تقديمِهِ على غيره من كُتُب الأدبِ العَرَبـيّ، وعدّه كِتَاب الكُتُـبِ، ومن أبرزهم ابـنَ خلدون، الذي قالَ عن الكِتَابِ في مُقدِّمَتِه: إنّهُ ديوانُ العَرَب، وجامعُ أشتاتِ المَحاسنِ التي سَلَفَتْ لهم، في كلِّ فنٍّ من فنونِ الشّعر والتّاريخ والغِنَاء، لِمَـا جمعَهُ فيـه من أخبـارِ العَرَب، وأشـعارِهم، وأنسابِهم، وأيَّامِهم، ودُولِهم. ولا يُعدلُ به كِتَابٌ في ذلك. وهو الغايةُ التي يَسـمو إليها الأديبُ، ويقفُ عندَها؛ وأنَّى لهُ بها[5].

والمَعنَـى الثّالث لكَلِمَة كِتَـاب الكُتُبِ، هـو المَعنَـى الإحـاليّ، أي مـا تُحيل إليـهِ أخبارُ الكِتَـاب، وقِصصُه، ومَادَّتُه السّرديّة، والشّـعريّة، بأنواعِهـا، مـن دلالاتٍ اجتماعيّـة، ففيـهِ صـورُ

(١) أبـو الفَرَجِ الأصفهانيّ، الأغَانِي، إشراف: مُحَمَّد أبو الفَضلِ إبرَاهيم، الهيئة المِصريّة العَامَّة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، تصدير الكتاب ج١ ص٤٦.

(٢) م.ن، المقَدّمَة، ج١، ص٢. ومُقَدّمَة المؤَلّف ص٧.

(٣) ياقـوت الحَمَويّ، مُعجَم الأُدَبَاء، تحقيق: الدكتور إحسـان عَبَّاس، دار الغرب الإسلَاميّ، بيروت، لبنان، ١٩٩٣. ج٤، ص١٧٠٨.

(٤) جُرجِـي زيـدان، تاريـخ آداب اللُّغَة العَرَبيّـة، دار الهلال، القاهرة، ج٢، ص٢٨٤.

(٥) أبو الفَرَجِ الأصفهانيّ، الأغَانِي، سـابق، من التصدير، ج١، ص٤٧.

الحَيَاةِ الاجتماعيّة[٦]، ومن نمطِ حَيَاة، فنحنُ نقرؤُه لينكشفَ، يقولُ شفيق جبري: نَمطٌ من الحَيَاة، لم ينكشفْ في كِتَابٍ من كُتُبِ الأدب[٧]، ونقرؤُه كما يقولُ طه حسين: لأنّنا نبحثُ فيه عن فَهمِ ما خَضعتْ له الأمَمُ من ألوانِ النّظُمِ المُختَلِفة[٨]. وهذا يَعنِي أنّه كِتَابٌ نَنفذُ منه إلى ما يُحيلُ إليهِ من أشكالِ السّلطَة التي تحكمُ المُجتَمَع، مثل سُلطةِ الخُلَفَاء على الشُّعَرَاء، وعلى المُغنّين، وسلطة هذه الفئات على الأخرى، وسلطة المُجتَمَع على الفئات المُقصاة، مثل النّساء، والمُخنثين، والملونين، وغيرهم. وهي سمة قلّ أنْ توجد في كِتَاب غير الأَغَانِي؛ فهو لم يقتصر على أخبار الخُلَفَاء، ولكنّ فيه أخبارًا لها صلة بحُرية النّاس، وعبوديّتهم[٩]. وهي، من ثَمَ، سمةٌ يَستأهلُ من أجلِها الكِتَاب أنْ يُدعى: «كِتَاب الكُتُبِ».

هناك مَعنًى رابعٌ للكَلِمَة، أدعوهُ التّواصليّ، وأريد به ما يحقّقه الكِتَاب للقرّاء من مُتعة، ولذة، وإشباع، في جانبٍ من جوانبِ التّلقّي، يفتقرونَ إليه، أو يَتلذّذونَ به. يَذكر هذا الجانبَ زكي مُبارَك في تشخيصهِ السّببَ الذي يجعلُ كِتَابَ الأَغَانِي مُقدَمًا عند القُرّاء، على مرّ العُصُور، على غيرِه منَ الكُتُب. فيقول: يُهمل الأصفَهَانيّ الجوانبَ الجديّة في حَيَاة الشُّعَرَاء الذين يترجمُ لهم. وميلُه هذا يشيرُ إلى ظمأ القُرّاء آنذاك إلى النّادر، المُستطرَفِ، من القِصَص والأحاديث[١٠]. وَيُشيُر داود سلوم إلى الميزة ذاتِها بالقول: إنّه كِتَابٌ يَتصيّدُ غرائبَ الأخبارِ في حَيَاة الشُّعَرَاء، ويُسجّل الأمورَ الغريبَةَ، والحوادثَ الشّاذَّة، التي تهمّ القرّاء[١١]. وَلَعَلَّ الكُتُبَ التي تخالفُ المعهودَ عن الشَّخصيّات العَامَّة والهامَّة، وتعرضُ حياتَهم الشَّخصيّة، وجوانبَ الضَّعفِ والشّهوة فيها، تكون أكثر حُظوة عند القرّاء، ويكونون أكثر طلبًا لها، واحتفاء بها؛ لذا يقدمونها على غيرها، ويحرصون عليها: نَسخًا وتداولًا، فتَعصى على التّاريخ أنْ يُبيدَها، حتى ليُقال في معرضِ مدحِه، إنّه: نَجا من غاراتِ التّتار، الذين طَرحوا نفائسَ المُصَنّفات في دجلة[١٢]، وعلى القُرّاءِ ألّا يَستبدلوها بغيرِها، أو يقدّموا عليها كِتَابًا. ومَن يقرأ الكِتَابَ يَجدْ شخصيّاتِ خُلَفَاء، وشُعَرَاء، وقُضاةٍ، تَلهو، وتَسكرُ، وتُحبّ، وتعشقُ، وتضعفُ، وتكرهُ، وتَتَنافسُ، ويجدْ ألفاظَ الجنسِ ومُسمياته صريحةً، وليست من مَوضُوعَات أكثر من هذه، تَستهوي القُرَّاءَ، وتجذبُهم إلى الكِتَاب.

ذلك ما تقترحُه الكُتُب التي دَرَستْ الأَغَانِي، وما يقترحُه تاريخُ الأدبِ عَامَّة لكَلِمَة كِتَاب الكُتُبِ. أمَّا المَعنَى الذي أقترحُه للكَلِمَة فأنّي أُعَرِّفُه بأنّهُ كِتَابٌ يَتَّسِم بالسّماتِ الآتية:

١. إنّه، كِتَاب الكُتُبِ، يُكتب في زمن يَتَّسِمُ بتراجعِ السّلطَة المَركزيّة، وضعفِها، وتوزعِها على أكثرَ من جهةٍ، فسنواتُ حَيَاة الأصفَهَانيّ، سنواتٌ (سَقطتْ فيها هيبةُ الخِلافَة، وزالتْ الدّولةُ وقامتْ دُويلات. وكلّ ذلك أحداثٌ سياسيّة واجتماعيّة خطيرة. أحداثٌ شاهدَها أبو الفَرَجِ

(٦) مُحَمَّد عبد الجواد الأصمعي، أبو الفَرَجِ الأصبَهَانيّ وكتابه الأَغَانِي، دراسة وتحليل لأزهى العصور الإسلَاميّة، دار المَعَارِف بمصر، القاهرة، ١٩٥١، ص١٢١.

(٧) شفيق جبري، دراسة الأَغَانِي، مَطبَعَة الجامعة التونسية، دمشق، ١٩٥١، ص٣.

(٨) طه حسين، حديث الأربعاء، دار المَعَارِف، مصر، ج٢، ص١٣-١٤.

(٩) . داود سلوم، منهج أبي الفرج الأصفهانيّ في كتاب الأَغَانِي، دراسة في النّصّ والسيرة، مَطبَعَة الإيمان، بَغدَاد، ١٩٦٩، ص٢٠.

(١٠) مُحَمَّد عبد الجواد الأصمعي، أبو الفَرَجِ الأصبَهَانيّ وكتابه الأَغَانِي (سابق)، ص١٩٧ وما بعدها.

(١١) داود سلوم، منهج أبو الفَرَجِ الأصفهانيّ (سابق)، ص١٢٥.

(١٢) مُحَمَّد عبد الجواد الأصمعي، أبو الفَرَجِ الأصبَهَانيّ وكتابه الأَغَانِي (سابق)، ص٢٩٣.

شـهودَ العِيَـان وتأثَّر بها إنْ قليـلًا وإنْ كثيرًا، وظهرتْ آثارُها في حياتِهِ الطّويلة)[١٣]. ويسهمُ تراجـع السّـلطَة المَركزيّـة في بـروز أصـواتِ الثّانَويّينَ، والمَحكُومينَ، أو المُهمّشينَ من نساء، ومُختَلِفـي الميـول الجنسـيّة، ومُختَلِفي الدّين والمَذهَـب، وظهور الكِتَاباتِ التـي تُعبّر عنهم، ويُسـهمُ في بـروزِ قصصِهم. وكان أبـو الفَرَجِ ولدَ سـنة ٢٨٤هـ بأصفَهَانَ، وعـاشَ وتعلّمَ في بَغدَادَ، وتوفّيَ سـنة ٣٥٦هـ، وعاصر الدّولة البويهيّـة[١٤]، التي جعلت الخِلافَـةَ، والخَليفةَ العَبَّاسـيَّين، صُوَريين، بلا سلطةٍ فعليّة. وكان نديمًا للوزيرِ الحَسـنِ بنِ مُحَمَّد المُهلبيّ، وزيرِ مُعزّ الدّولةِ البُوَيهيّ.

٢. إنّـه كِتَـاب يكتبُـه مُؤَلّف لا ينتمـي إلى النّظام الحَاكم، ويُضمّنُه ما يُهدّدُ السّـلطَة الرّسـميّة، السّياسـيّة والآيديولوجيّـة. وأبـو الفَـرَجِ الأصفَهَانـيّ يَنتسـبُ مـن جهةِ جـدِّهِ لأبيه إلى الأُمويّينَ؛ فهو عَليّ بن الحُسَـين بـن مُحَمَّد بن أحمـدَ بن الهَيثمِ بـن عبدِ الرّحمنِ بـن مَهرانَ بـن عبدِ اللهِ بنِ مروانَ بنِ مُحَمَّد بنِ مروانَ بنِ الحَكمِ بنِ أبي العاص[١٥]. هو أُمويّ، في الأصلِ، مولـودٌ في الدّولـةِ العَبَّاسـيّة، التـي تضطهـدُ الأمَويّينَ ونسـلَهم، فيُضطرّونَ إلى الابتعادِ عن الدّولةِ وأعمالِها؛ لذا لـم يكنْ أبو الفَرَجِ نديمًا، أو مؤدِبًا للخُلَفَاء، وأبناءِ الخُلَفَاء[١٦]، وتجعلُهم يميلـونَ إلى نوعٍ من الكِتَابة، هو روايةُ التّاريخ والأخبار. يقولُ الخطيبُ البَغدَاديّ عنه: الغالبُ عليه روايـةُ الأخبارِ، ومُعظمُ كتبِـهِ في الأخبارِ، مثل: مَقاتل الطّالبيينَ، وأخبار الإماءِ الشّواعِر، وكِتَاب الدّيـارَاتِ، وآداب الغُرَبَـاء[١٧]، وأخبار القِيَان، والأخبَار والنّـوادِر، وأخبار الطّفيليينَ، ومجمـوع الأخبَـار والآثـار، وأخبَـار جَحظَةَ البَرمكيّ[١٨]، وليستْ أيّة أخبار! بل ما يُشاهدُه بنفسِـه مـن أحـداثٍ، أو ينقلُه عمّن شـاهدُوا الأحداثَ وسمعوها، ولا سيَّما من أبيهِ وعمّه[١٩]. ومَروياتُه أقـرب إلى المَروياتِ الشَّـخصيّة، أي التي تمرّ عبر عين المتكلم، وتفترقُ عن المَروياتِ العَامَّـة المَمهورَة بإرادةِ السّـلطَة، وما تريدُ له أنْ يشيعَ من المَعرفةِ؛ فالتاريخ الرّسميّ، مثلما هـو معروف، تاريـخ يَضعُه الحـكّامُ، لغاياتٍ آيديولوجيّـة وسياسـيّة، وفيـه اختـلاقٌ كثير، وابتعـادٌ عن واقـعِ المُجتَمَـع، وواقعِ الإنسـانِ المَحكُـوم، ومـا يُعانيهِ من ظلمٍ وتَسـلّط، وهي عملٌ سـياسيّ، وأداةٌ تَسـتخدمُها الآيديولوجيا المُهيمنـة[٢٠]، تقابلهـا القِصَص التـي يدوّنها الأفرادُ والمَحكُومونَ، دفاعًا عن أنفسِهم، ورغبةً في إيصالِ أصواتِهم، ورؤيتِهم، إلى القُرَّاء.

٣. إنّـه كِتَـاب تظهـرُ فيـه العاطفةُ الشَّـخصيّة للمُؤَلّـف، والتّعبـير عن النّفـس. وفيما يخصُّ الأصفَهَانـيَّ، فقـد كانَ، في كِتَابـه، ذا عواطفَ

(١٣) الدكتور مُحَمَّد أحمد خلف الله، صاحب الأغَانِي "أبو الفَرَجِ الأصفهانـيّ الراوية"، مكتبـة الانجلو المِصريّـة، القاهرة، ط٢/١٩٦٢، ص٢٢.

(١٤) الدولـة البويهية: دولة أصلهـا من فارس، حكمت بَغدَاد في العصر العَبَّاسي الثّالث وبوجود الخليفة العَبَّاسي، واسـتمر حكمها من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٤٥٤هـ.

(١٥) الخطيـب البَغـدَاديّ، تاريـخ بَغـدَاد، دراسـة وتحقيـق: مصطفـى عبد القادر عطـا، دار الكتـب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢/٢٠٠٤، ج١١، ص٣٩٨.

(١٦) مُحَمَّد أحمد خلف الله، صاحب الأغَانِي (سـابق)، ص٣٨-٤٥.

(١٧) الخطيب البَغدَاديّ، تاريخ بَغدَاد (سابق)، ج١١، ص٣٩٨.

(١٨) ياقـوت الحَمَويّ، مُعجَم الأُدَبَاء (سـابق)، ج٤ ص١٧٠٨-١٧٠٩.

(١٩) مُحَمَّد أحمد خلف الله، صاحب الأغَانِي (سابق)، ص٤١.

(٢٠) د. نادر كاظم، الهوية والسرد، دراسـات في النّظرية والنّقد الثّقافي، دار الفراشة، الكويت، ط٢/٢٠١٦، ص٧٥.

شـخصيّةٍ صادقةٍ، قويّة، تظهـرُ، فيما تظهرُ، في دفاعِه الحـارّ عمّن يحبّ من الشَّـخصيّات، وفي هجومِه القويّ العنيـف على خصومِها[٢١]، وتظهرُ في انحيازِه إلى الشَّخصيّات التي يحبّها، مثل إبراهيمَ المَوصليّ، وابنه إسحقَ، وابن المُعتزّ، وجحظةَ البرمكيّ، فيما يكتبُ؛ فهو ينقلُ عنهم الأخبـارَ، ويترجمُ لهم في هذا الكِتَاب فصولًا، أو يُخصّصُ لهم كتبًا، مثـل كِتَابِه: أخبارِ جَحظةَ البرمكيِّ[٢٢]، أي أنّـه -المؤَلّف- أقربُ إلى الذَّات في تحقّقها الاجتماعيّ، والإنسـانيّ، والزمانيّ، وفيما تحسّـه، وتعيشُه، وتميلُ إليه، وتحبّه، أو تميلُ عنه، وتكرهُه.

٤. يعتمـد هـذا النّـوع مـنَ الكُتُب عـلى المكتوبِ، وعلى الكِتَابة، أكثر من اعتمادِه على المُشـافهةِ، وأسلوبِ الرّواية. وَيُشـيرُ من تكلّم عن الأَغَانِي مـن القُدَامَى، ومـن المُحدَثينَ، إلى هذه السّـمةِ فيـه، فمـن القُدَامَى ابـن النّديم ويقـول: وإنّ أكثرَ تعويلِه على الكُتُبِ المنسـوبةِ الخُطوط[٢٣]. والخطيبُ البَغـدَاديّ، وينقلُ عن أحدِهم أنّ أبا الفَرَجِ (كانَ يدخلُ سوقَ الورَّاقينَ وهي عامرةٌ، والدكاكينُ مملوءةٌ بالكتبِ، فيشتري شيئًا كثيرًا من الصّحف، ويحملُها إلى بيتِه، ثم تكونُ رواياتُهُ كلّهـا منها)[٢٤]. ومن المحدَثـين الدّكتور مُحَمَّد أحمد خلف الله، ويذكرُ أنّ الأصفَهَانيّ يستعملُ كَلِمَة: نَسـختُ مـن كِتَاب، ووجـدتُ في كِتَاب، كثيرًا[٢٥]. ويردّهُ إلى انتشارِ الكِتَابةِ في زمنِه[٢٦].

ويتضمنُ الاعتمادَ على الكِتَابةِ رفضًا مقصودًا، لأسـلوبِ التّأليفِ التّقليديّ، الـذي يحافظ على المَـادَّة السّرديّة عبر التّأكد من أسـانيدِها، ومن انتسـابِها إلى فئةِ العُلَمَاء، والرّواة الثّقاتِ، وإلى الآيديولوجيا الرّسميّة والسّلطة، ويُضيّق حدودَ الإضافات، التي تَسـتدعيها التّغيّراتُ الزّمانيّة، إلى المتـونِ المُسـتقرّة إلى حدٍّ مـا، فضلًا عن أنّه يمنعُ الابتكار، واستحداثَ متونٍ جديدة. الشّيء الذي تُحدّثه الكِتَابة؛ إذ بتحررِها من الشّفاهيّ، وقيـودِه الصّوغيّـة والمَضمونيّـة، تُمنـحُ المَادَّة السّرديّة اتسـاعًا في الصّوغ، وتنوعًا في أساليبِ السّرد، وإحاطـةً بمَوضُوعَات تتطلبُ اتسـاعًا في الـسّرد، مثـل مغامـراتِ المّنفيّـينَ، ومعاناةِ الفَارّينَ، والعشّـاق، وغيرها مـن المَوضُوعَات، التي يجدُها القَارِئ، في كِتَاب الأَغَانِي، مسرودةً في صفحـاتٍ كثيرة، وتعجـز الرّواية التّقليديّة، الشّـفاهيّة، عـن حفظهـا، أو أدائِهـا. وَلَعَـلَّ الكِتَابـة، باتّصالِها بالفئاتِ الدّنيا من المُجتَمَع، وبالثّانويّينَ، وسـيلةٌ مناسبة لتجسيدِ حياتهم، وتجاربِهم، وخبراتِهم، وخصوصيّتهم الفكريّة والنّفسـيّة. وهي سـمةٌ بارزة من سماتِ كِتَاب الكُتُبِ، ما داموا، أي الثّانَويّينَ، موضوعَه.

٥. ينتسـبُ هـذا النّـوعُ مـنَ الكُتُـب والتّأليـف، إلى مُؤَلّـف لا تشـبهُ صورتُـه صـورَ المُؤَلّفـين المُعتـادة، النّاثرينَ منهم أعني؛ فهم مُهندَمون، ومُرتَّبـون، ومصقولو الخُلـق. ومثالهم الأعلى ابنُ المُقفّع[٢٧]. وكان (نبيلَ الخُلق وقورًا يترفّعُ عن الدّنايا، ولا يجعلُ للهَوى سلطانًا على عقلِه، وكان يأخـذُ نفسَـهُ بكلِّ ما يُمكـنُ من خصالِ

(٢١) مُحَمَّد أحمد خلف الله، صاحب الأغَانِي (سابق)، ص٧٤.
(٢٢) الخطيب البَغدَاديّ، تاريخ بَغدَاد (سابق)، ج٤، ص٦٥.
(٢٣) مُحَمَّـد بن إسـحاق بـن النّديـم، الفهرسـت، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ص١٧٦-١٧٧.
(٢٤) الخطيب البَغدَاديّ، تاريخ بَغدَاد (سابق)، ج١١، ص٣٩٨.
(٢٥) مُحَمَّـد عبد الجواد الأصمعي، أبو الفَرَجِ الأصفهانيّ وكتابه الأغَانِي (سابق)، ص١٨٦.
(٢٦) م.ن، ص٢٦٢.

(٢٧) ابن المقفع: ولد ١٠٦هـ واحد من أشـهر النّاثرين في الأدب العَرَبـيّ القديم. أصله فارسي. من أهم آثـاره: كتاب كليلة ودمنة وكتاب الأدب الصّغير وكتاب الأدب الكبير. توفي سنة ١٤٢هـ.

المروءةِ والشّعورِ بالكَرامة)[٢٨]، وكان يُراعي جليسَه، أو بعبارةِ شوقي ضيف: دقيقُ الحسّ، دعاه رئيسُه للغداءِ فاعتذرَ بأنّهُ مزكومٌ، قائلًا: والزكمةُ قبيحةُ الجوارِ، مانعةٌ من عشرةِ الأحرار[٢٩]. أمَّا أبو الفَرَجِ فقد (كانَ النّاس على ذلك العهد يحذرونَ لسانَه ويتقونَ هجاءَه، ويصبرونَ في مجالستِه ومُعاشرتِه ومُواكلتِه ومُشاربتِه على كلِّ صعبٍ من أمرِه، لأنّهُ كان وسخًا قذرًا لم يغسلْ له ثوبًا منذ أن فصّله إلى أنْ قطّعه... وكان وسخًا في نفسِه ثم في ثوبِه وفعلِهِ حتى أنّه لم يكنْ ينزعُ دراعةً يُقطّعها إلا بعدَ بلائِها وتقطيعِها، ولا يعرفُ لشيءٍ من ثيابِه غسلًا)[٣٠]. ولم يكنْ في سلوكه مع الوزراء، أو الطّبقة العليا من المُجتَمَع، تأدبٌ أو حذرٌ، يدلُّ على ذلك روايةٌ عنه مع الوزيرِ المُهلبيّ، ومفادُها أنّه كان جالسًا معه على مائدةِ طعامٍ له يؤاكلُه، فسعلَ، فسقطتْ من فمه قطعةٌ بلغم، في الطّعام. وتمام الخبر أنّ أبا الفرجِ لم يداخلْهُ استحياءٌ، ولا انقباض[٣١]. ودلالتُه أنّه لا يَرى نفسَه أقلَّ من الوزير، ولا أنّ عليه أنْ يحسبَ حسابًا خاصًا له، في التّعامل والمؤاكلة. بل هو شخصيّة مُستقلّة بسلوكِها الاجتماعيّ، وبتكوينِها النّفسيّ، وتوجهِها الآيديولوجيّ، وعلى الآخر أنْ يتقبَّلهُ. أمَّا الوزير: فلم يَبِن في وجهِه، يقول الحَمَويّ، إنكارٌ، ولا استكراهٌ، لفعلِ الأصفَهانيّ. وَلَعَلَّ في هذه الصّورة، القريبة من الواقعيّ، والإنسانيّ، الذي يكونُ عليه المُؤَلّف، إحالة إلى طبيعة العلاقة بين السّلطَة والمُؤَلّف في عصر الأصفَهانيّ، وهي علاقة تلاؤمية[٣٢]، تفسحُ فيها السّلطَة المجالَ للكاتبِ ليُعبِّر عن ذاته وخصوصيّتِه، ويلبّي فيها الكاتبُ، رغبةَ السّلطَة في أنْ تُعبّر الكِتَابةُ عن التّعدديّة الإثنيّة، والمَذهبيّة، والآيديولوجيّة، التي صارت ظاهرة في عصر البُوَيهيّينَ، وفي مرحلةِ تراجعِ سلطة المركز، مذهبيًّا أم إثنيًّا كان.

كِتَاب الكُتُب كما في الأَغَانِي

أفترض أنّ هناك قصصًا مُستبعدة، لا يركّزُ عليها السّردُ العَرَبيّ القديم، وإنْ أوردَها ففي سياق الإمتاعِ، والإضحاكِ، والانتقالِ من الجدِّ إلى الهَزلِ، والاستراحةِ من عَناء التّفكير والتّأملِ، ولنقلِ الخبر من الهامشِ إلى المتن[٣٣]. وهو نقل لا يخلو بطريقة ما من تأكيد أنّها قصص تابعة وثانويّة، وتتصل بالفئات المهمشة، أي طبقة الخدم، والرقيق، والعَامَّة، الذين يلحقون بالطبقة العليا: طبقة الخُلَفَاء، والوزراء، والقوّاد، والولاة، والأمراء، وكِبار رجالِ الدّولة، ورؤوسِ التّجار، وأصحابِ الإقطاع، ويؤدّون لهم خدماتٍ ترفيهيّة، وتعليميّة. ومن أبرزِهم المُغنّونَ، والمُغنّياتُ، والمُعلّمونَ، والكُتَّاب، كُتَّابُ الدّواوين، والنّدامى، أو مصاحبو الخليفة، ومَن في منزلته[٣٤].

---

(٢٨) شوقي ضيف، العصر العَبَّاسي الأول، دار المَعارِف، مصر، ط٨، ص٥١٠.

(٢٩) م.ن.ص.

(٣٠) ياقوت الحَمَويّ، مُعجَم الأُدَبَاء (سابق)، ج٤، ص١٧٠٩.

(٣١) .م.ن.ص.

(٣٢) أنواع السلطة: قسّم جون كينيث في كتابه "تشريح السلطة" ترجمة: عَبَّاس حكيم، كيفية ممارسة السلطة إلى ثلاث كيفيات هي، القسرية: وتعتمد على القوة والعنف والإرهاب. والتعويضية: وتعتمد على توفير قدر من الرفاهية للشعب مقابل التخلي عن حريته. والتلاؤمية: وتنبني على نوع من التفاوض المُعلَن أو الضمني بين السلطة والشعب يحقّق فيه كلّ طرف منهما إرادته. وقد كانت السلطة في العصور الإسلَاميّة قبل ضعف الخلافة، بناء على هذا التصور، قسرية، ثم تحوّلت بدخول البويهيين وظهور الحمدانيين والفاطميين، وغيرهما من الممالك، إلى التلاؤمية.

(٣٣) محسن جاسم الموسوي، سرديات العصر الإسلَاميّ الوسيط، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ١٩٩٧، ص٥٦.

(٣٤) شوقي ضيف، العصر العَبَّاسي الثّاني، دار المَعارِف، مصر،

أمَّا أنْ يَكونَ لهـم صوتٌ، أو قصصٌ تخصُّهم، ففي الغالـب: لا. ولذا لا نكادُ نجدُ في كُتُب الأدبِ في القرنِ الثّالـثِ الهِجريّ، أو في عهد الدّولة العَبَّاسـيّة الأولى والثانيـة، كِتَاباتٍ تفسـحُ مسـاحة تذكـرُ لِقصصٍ أبطالُهـا مجهولـون، ومن العَامَّـة، أو النّسـاء، أو حرفيون. وإنْ وجدتْ فلا تُشـكّل مَادَّة كبيرة، تلفت النّظـر، أو تثيرُ اهتمامَ القَـارِئ؛ لأنَّ القصّ، عمومًا، ممارسـةٌ وعظيّة، لها غاية دينيّـة[٣٥]، يتفرعُ منهما البُعدان: الأخلاقـيّ، والتّعليميّ، اللذانِ لا يكادُ يخلو منهمـا قصّ، وتُختصر فيهما وظيفتا السّرد القديم، الأساسـيتان: الاعتبار والتّعليم. ويستطيعُ القَارِئ، بيسـيرِ الجُهـد، الانتبـاه إلى مـا في كُتُبٍ مثـل كَليلةَ ودمنـة[٣٦]، ومُفاكهة الخُلَفَـاء[٣٧]، وكثير من أخبارِ الجاحـظ[٣٨]، مـن حضٍّ عـلى الاعتبـارِ من قصصِ مَـنْ تُروى قصصُهم، وتغليب العقل الذي تنتج عنه سـلامة الفرد، والمُجتَمَع، والأمة. ويسـتطيع، بيسر أيضًا، أنْ يلمسَ في مقاماتِ الحريريّ[٣٩]، وفي أخبارٍ مُتفرقـة في كتب: الكامل[٤٠]، أو بلاغات النّسـاء[٤١]، والأمـالي[٤٢]، حـرص المؤَلّـف على أنْ يَكـونَ الخبُر، والقصُّ، عَامَّة، بما يتضمنُـه من مَادَّة لغويّة، قائمًا بتعليم القرّاء، اللُّغَة: لغة القُرآن. وكلتاهما: الوظيفة الأخلاقيّة والتّعليميّة، وصلتا القصّ بالفئةِ الحاكِمة؛ إذ اسـتحالَ أداةً اصطَنَعها الخُلَفَاءُ، والأمراءُ، لنشر دعواتهم في طبقاتِ الشّعب على اختلافِها، كما كانت تصطنـع الشُّـعَرَاء، يناضلون عنهـا، ويذودون عن آرائها، وزعمائها[٤٣]، ووسـيلة لرفـع الطّبقة الدّنيا حتى تسـتوعبَ ثقافة الخَاصَّة[٤٤]. أي أنّهما قربتاه مِنَ السّـلطَةِ، وابعدتاه عن العَامَّة، وعن التّعبير عن مشكلاتهم، وهمومهم، وطريقة ردّهم على السّلطَة. أمَّا مـا مضى مع الخيـال منه، وتقرّب من الشّـعب (وأهوائـه)، فقـد انصرفَ عنـه أصحـابُ الجد[٤٥]، ودعاةُ الآيديولوجية والسُّلطة، وصار يوضعُ في خانةِ السّـخفِ، والهزل، والتّرويحِ عن النّفسِ، واستراحةِ العقـلِ من كـدّ التّفكير، وليـس يُطالـبُ قارئُه بأنْ يسـلكَ معه سـلوكَه مع الجادّ من الأخبارِ، فيتأملَه، أو يخـرجَ منـه إلى مَن يُمثلُهم الخبر، من نسـاءٍ، أو

ط١٠/١٩٩٦، ص٥٣.

(٣٥) عبد الله إبراهيم موسـوعة السرد العَرَبيّ، المؤسسة العَرَبيّة للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص٨٨.

(٣٦) كليلـة ودمنـة: كتـاب ترجمـه ابـن المقفع عن الفارسـية أصولـه هنديـة، يضم قصصـاً مروية على لسـان الحَيوان وشخصيّاتها من الحَيوان، ولقصصه بعدان، ظاهر: غايته التسـلية، وباطـن: غايته التفكـير والتدبر في أمـر الحكّام والشعب.

(٣٧) مفاكهـة الخلفـاء: كتـاب ألفـه ابن عربشـاه المتوفى سـنة ٨٥٤هـ، ويضم قصصاً على لسـان الحَيوان. ويدخل فيما يُعـرف بمرايا السـلطان أو أدب السـلطان، الذي يتضمن نصحاً غير مباشر للحاكم.

(٣٨) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، ولد في البصرة في حدود سـنة ١٥٠هـ وتوفي فيها سنة ٢٥٥هـ، ويعد من مؤسسي النّثر العَرَبيّ التقليديّ لـه مُؤَلّفات كثيرة من أبرزها البيان والتبيـين والحيـوان، وكان مُقرَبـاً من الخلفاء العَبَّاسـيين والولاة.

(٣٩) مقامـات الحريري: ألفها مُحَمَّـد الحريري البصري (توفي ٥١٦هـ) كتاب يتضمن نوعاً سردياً قديماً يُدعى "المقامة"، له شـكل محدد فيه راوٍ وبطل وحادثـة اجتماعية وينتهي بعـبرة فيهـا، غالباً، نقـد اجتماعـي. ومقامـات الحريري يطغـى عليهـا البعد التعليمـي أو تعليم اللُّغَـة لما فيها من غريب اللُّغَة.

(٤٠) كتـاب الكامل: كتاب أدب ولغـة، ألفه مُحَمَّد بن يزيد المبرد (توفي ٢٨٥هـ).

(٤١) بلاغـات النّسـاء: كتاب أدب يضم أخبار النّسـاء وخطبهن ونوادرهن، مُؤَلّفه أحمد بن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠هـ

(٤٢) كتـب الأمالي: كتب محـاضرات بالمعنى الحديث، أو دروس يمليها العلماء القُدَامَى على طلبتهم، وتتضمن شرحاً للشعر وإيـراداً للأخبار والقصص. وقـد أوصلها بعض المؤرخين إلى ثلاثين كتاباً, ومن أبرزهـا كتاب لأبي عليّ القالي، المتوفى سنة ٣٦٥هـ.

(٤٣) طه حسـين، في الأدب الجاهـلي، دار المَعَارِف، مصر، ط١٢، ص١٥٠.

(٤٤) د. مصطفـى ناصـف، محـاورات مع النّثـر العَرَبيّ، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧، ص٤٠.

(٤٥) طه حسين، في الأدب الجاهلي (سابق)، ص١٤٩.

مَغمُوريـنَ، أو فَارّينَ، أو غيرهـم من الفئات التي لا ينقـلُ صوتَها كُتَّاب الأدب، بـل عليه أنْ يضحكَ من الخبرِ، ويستَسخِفَهُ، ويزدريَ شخصيّاتِه.

إنّ أهميـة كِتَـابٍ، مثل الأَغَانِـي، تكمنُ في أنّـه سـمحَ للقصصِ المُسـتبعَدة: قصصِ النّسـاء، والمَغمُوريـنَ، والمَنفيـين، والفَارّيـنَ، وغيرهـم، كما سـأبين في هذا البَحث، بالحضور في فضاء الثَّقَافَة، وضَمِنَ لها الاعترافَ الأدبيّ، لا بوصفها مَادَّة هامشٍ تقابـلُ متنَ في الكِتَـاب، والثَّقَافَة، بل بوصفِها مَادَّة أساسـيّة، ومَركزيّة، وواحدة في الكِتَـاب، والتّقدير النّقديّ، والتّداول، واسـتمراريته عبر الأزمنة؛ إذ لم تخمدْ عناية النّسّـاخ، والمُحققـين، والمُنتخِبينَ منه، والنّاشِريـن، والقُرَّاء، به منذُ تأليفـه، إلى وقتنا[٤٦]، ومادّة لها سـماتها الصّوغيّـة، وطبيعتُها المعرفيّة، المتأتّيتان كلتاهما من غاياتِ هذا النّوعِ من التّأليف، ووظيفتِـه؛ فهـو يُركّز، ودعوني اسـتعيرُ مُصطَلَح «القِصَص البَديلَة» من أصحابِ الدّراساتِ الثّقافيّة، عـلى الثّانَويّينَ مـن النّاس، وأبناءِ الطّبقـاتِ الدّنيا، ويَعني قصصًا صغيرةً، منسوبةً إلى فئاتٍ غير مُعترَفٍ بها ثقافيًّا، ولا يحقّ لها الكلامُ، وتمثيلُ نفسها، مثل: الفَارّينَ، والنّسـاء، والمُخَنَّثينَ، والعُشَّـاق، وغيرهم. وتتضمن تجسـيدًا لشـخصيّاتهم، ولخصوصيتهم العقليّة والنّفسـيّة، ولوجودهـم المُتحقّق في الزّمان والمـكان، وتعبيرًا عن آلامهـم، ومعاناتهم، وتنطوي على بعد مقـاوِم للقصـص الرّسـميّة، التي تتعالى عليهـم، وتنكرُهم، عادة، وللآيديولوجيا الرّسـميّة، وللسُّـلطَةِ. وهي قصصُ مجموعة من البشر، جَرَى اقصاؤُهم، وعزلُهم عن المجموعة الرّئيسة، أو أبعدوا عـن القطيع، المندفـعِ في مجرى التّاريخ الرّسـميّ، المُعلـن، وهـم، الآن، يكافحون بنبالةٍ، مـن أجلِ أنْ يَكـونَ لهم مـكانٌ داخلها، أو داخلـه، أو بين دَفّتَي مدونتِه الكُبرَى[٤٧].

وينطبق الوصف الأخير على كِتَاب الأَغَانِي، ومُؤَلّفه أبي الفَـرَجِ الأصفَهَانيّ؛ فهو كِتَاب قِصصٍ بديلةٍ، يتضمن قصصًا بديلة عن القِصَص المُتعهدَة آيديولوجيًّـا، وثقافيًّـا، تعـود إلى فئـات مُهملـة، ومُسـتبعدة هي وقصصُها، تُعبّر عنهـم، وتُمثّلهم، وتنطوي على مواجهة للسُّـلطَةِ، في عصر هو العصر العَبَّـاسيّ الثّالـث[٤٨]، تراجعتْ فيه سـلطة المركز، وحلّت محلَّها سـلطة التّابع مَناطقيًّـا، أو المُختَلِف عرقيًّا ومذهبيًّا، وصارَ مُمكنًا له الكلام. والأصفَهَانيُّ نفسُـه، كما ذكـرتُ أعـلاه في الحديث عن سـمات كِتَاب الكُتُبِ، أمويّ متشـيّع[٤٩]، مُنقطِعٌ إلى الوزيرِ البُويهيّ، وصارَ يسـتعملُ الكِتَابـة في أثباتِ الذّات، ومُقَاوَمَة مَرويَّات السّـلطَة، وأساليبِها التّقليديّة، في التّدوين، والتّوثيقِ، والإقصاءِ، وصولًا إلى الدّفاعِ عن حـقّ الذّات في الوجودِ، والعَيشِ، والسـلوكِ، وغيرها من التّفصيـلاتِ التي حرصَ عليهـا الأصفَهَانيّ في كِتَـاب الأَغَانِي، وحرصَ عليها هو، وكُتّاب سـيرته: إنسانًا عاميّ، الهيأة، والسّلوك، والقول.

المَبحَث الثّاني
القِصَصُ البَديلَة وثيمَاتُها

ركّز كِتَاب الأَغَانِي على المُهمَلِ من القِصَص والفئـاتِ الاجتماعيّـة؛ لتشـكيلِ هُويّتـه السّرديّة، متجـاوزًا أيّـة ثُنَائيّـات تقليديّة، تشـيعُ، عادةً، في

(٤٦) . في مُقَدّمَـة الأَغَانِـي، ج١ ص٤٨ وما بعدهـا، ذكر لتعامل المُؤَلّفـين مـع الكتاب بدءا من القرن الخامـس الهِجريّ إلى العـصر الحديث تلخيصاً وترتيبـاً واختصاراً وإعادة نشر، ويُظهر مدى العناية بالكتاب.

(٤٧) ادوارد سعيد، الثّقافة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧، ص١٦-١٧.

(٤٨) العصر العَبَّاسي الثّالث: هو عصر تمكّن البويهيين من الخليفة العَبَّاسي ويمتد من ٣٣٤هـ إلى٤٤٧هـ.

(٤٩) الخطيب البَغدَاديّ، تاريخ بَغدَاد (سابق)، ج١١، ص٣٩٩. يقول عنه: وكان أموياً وكان يتشيّع.

السّرودِ القديمـة، مثل: خير/ شر، وذكورة/ أنوثة، وسـيد/ عبد، وأعلى/ أدنى، وغيرها مـن الثُّنَائيّات التـي شـكّلت الـسّردَ ذاك: بنيةً ودلالـة، وتعملُ في سـياق فكريّ، تسـودُه مَركَزيّة إثنيـة، أو ثقافيّة، وترسّـخه، مثل ذلك الذي عُرف في العصر العَبَّاسيّ الأول، واسـتجابت له كتبٌ، مثل كِتَاب كليلةَ ودمنة لابنِ المُقفَّع. ويتم تجـاوزُ الثُّنَائيّات إلى المَوضُوعَات أو الثّيمـات، التي تكون هي البديـلَ للثُّنَائيّات على صعيد البنيةِ، وعلى صعيـدِ المُواجهة الثّقافيّة، التي غايتُها تكريسُ الهُويَّة، وإزاحة النّموذج السّلطويّ، وتقليل التّنافر بين الجماعاتِ المُمثلة سرديًّا وثقافيًّا، ولها وجودٌ اجتماعيّ. وَلَعَلَّ كِتَابَ الأَغَانِي، لأسـبابٍ ذكرتها في التّقديم التّاريخيّ، ولأسبابٍ سأذكرها في التّطبيق، وهو القسـم الثّاني من هذا البَحث، المثال الأكثـر وضوحًا عـلى هذا النّوع مـن التّأليف، الذي عُرفَ في العُصُور العَبَّاسـيّة المتأخّرة، وكان يضمرُ في مَرويَّاتـه، وأخبـارِه الكثـيرةِ، سياسـاتِ هُويَّة، وثقافةً، ومُقَاوَمَة.

الثيماتُ المَوضُوعَات التي تُنسـبُ إلى أناسٍ ليسـوا مـن النّخبـةِ، وفيها خـبراتٌ متنوعـة، ولها تجسـيدٌ تاريخـيّ واجتماعيّ، وتحكيهـا جماعاتٌ مُختَلِفة، أو تحكيها الثّقافاتُ الفرعيّة عن نفسـها، وفيها مُقَاوَمَة للسرديّاتِ الكُبرَى، مُقَاوَمَة مضمرة، في طريقة السّرد نفسِها، وفي أسلوبِه، ومَوضُوعَاتِه، والقيـم التـي يعـبّر عنهـا، والتّجـاربِ المنقولـة. وفيها عـلى الرّغم من خُصوصيّتِهـا الفرديّة، أبعادٌ اجتماعيّـة، وسياسـيّة[٥٠]. وهـي ترتبـطُ بطبيعةِ المُجتَمَعـات، وبسـياقاتِها الحَضاريّـة، وبظروفها التّاريخيّـة، والمعرفيّة، التي تجعلُ المَوضُوعَات ذات فاعليّـة ثقافيّـة في تعبيرِها عن جَمَاعَـة، وفي نقدها أنسـاقًا ثقافيّة، تصادرُ حقّ المجموعاتِ الفرعيّة في الكلام، وفي التّمثيل. وترتبطُ بالسـلطةِ التي تمنعُها الـكلامَ أو تخولُهـا إيّـاه، أو تمنعُ موضوعًـا[٥١] أو تبيحُـه، فينعكس ذلك في أشـكالِ القصِّ تَحدُّدًا، أو تنوعًا، ليعبّر عن توجهات سلطة، في حقبة تاريخيّة، مثل العصر العَبَّاسي الثّالـث، أو عصر الأصفَهَانيّ. ولذا فليسـت القِصَصُ قصصَ تسليةٍ، إذا وردتْ في كِتَاب مثل الأَغَانِي، وليسـت مَوضُوعَاتُها خاليةً من غايات: تمثيل الذّات، والتّعبير عن الهُوية. ومن أبرزِ ثيمات كِتَاب الأَغَانِي: المُطَاوَلَـة، والثورةُ، والتّدبيرُ، والتّربّـصُ، والحـبُّ، والفـرارُ، والتّحـررُ، والقتلُ، والنّفيُ، والجنسُ.

قوة المنبوذين

تتصل ثيمة المُطَاوَلَة بشـخصيّاتٍ منبوذةٍ اجتماعيًّا، تنتمي إلى المُهمشينَ، الذين يكونونَ أفرادًا يخوضـونَ التّجربـة مـع صديق، أو فـردٍ آخرَ من فئتِهـم الاجتماعيّة. ولأنّهم يعملونَ خارج الجَمَاعَة، وبجهد فـرديّ، فإنّهـم يواجهونَ صعوبـةً تحتاجُ إلى مُطَاوَلَـة. والمثال عليهم تَأبَـطَ شَرًّا[٥٢]، في أغلبِ أخبـارِه الـواردة في الأَغَانِي. ومنها خـبرُه مع مُرّة بن خليف، وخرجا يريـدانِ الغارةَ فأضلا الطّريق، وصـارا في مكانٍ لا يصلُ إليهِ بشر، فصعد كلّ واحد منهما على جبل عالٍ، واتفقا أنّهما إذا رأيا شرًا لوّحا بالسـيف، وإذا رأيا خيرًا لوّحا بالثوب. وبعد يومين لـوّح تَأبَطَ شَرًّا بالثوب، ثم سـارا يومـينِ وليلتين، حتى بلغا حيًّـا، فقالَ تَأبَطَ شَرًّا لمُـرّة: كن ضيفهم ثلاثًـا. ثم في الثّالث أغار على القوم، وسـاعده تَأبَطَ

(٥٠) جينز بروكمير ودونال كربو (تحرير)، السرد والهوية، دراسات في السيرة الذاتية والذات والثقافة، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، مؤسسة هنداوي، لندن، ٢٠٢٤، ص١٦-٢٠.

(٥١) ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ط٢/١٩٨٧، ص٤٠-٤٤.

(٥٢) تأبط شرا: شاعر جاهلي من الصّعاليك اسمه ثابت بن جابر. توفي سنة ٦٠٧م.

شَرًّا، واستاقا النّعم والإبل، وهرَبَا مُسرعَين، يومًا وليلة، حتى دخلا في الليلةِ الثّانيةِ شِعبًا، وذبحا قلوصًا، (ناقة صغيرة)، وبينما هما يشويان سمعا أصواتًا، أدركا أنّها جاءت تطلبهما، فواجَهَهم تَأبَطَ شَرًّا، وقتل أحدهم، وأفلت بصاحبِه من الموت.

يحرصُ السّردُ على تبيينِ الصّعوباتِ التي تواجه الشَّخصيّة، الفرد؛ فهي لا تنتمي إلى جَمَاعَة، وليس لها غير ذكائها، وإمكاناتِها العقلية المتميزة، وأوضحُها دقّةُ المُلاحَظة: (ومضيَا حتى إذا وقَعَا بين جبالٍ ليس فيها جبلٌ متقارب، وإذا فيها مياهٌ يصيحُ الطّير عليها، وإذا البيضُ والفراخُ بظهور الأكم، فقالَ تَأبَطَ شَرًّا هلكنا واللاتِ يا مُرّة، ما وطئ هذا المكانَ إنسٌ قبلنا، ولو وطئته إنسٌ ما باضتْ الطّيرُ بالأرض)[٥٣]. أضفْ إلى دقة الملاحظةِ حُسنَ التّفكر في المواقف، واقتراحَ الحلول لها، للخروج من أيّ مأزق، والنّجاة. والأفعال السّابقة كلها متصلة بالمُطَاوَلَة، الموضوع الذي يعبّر عن شخصيّات تُصنف على أنّها ثانويّة. وقلّ أنْ يُعنى السّردُ بتجاربها. وهي ترسمُ هُويّتها النّفسيّة، والعقليّة، والاجتماعيّة، وتقدّمُها للقارئ، الذي لمْ يعتدْ على تمثيلها سرديًّا.

الثورة والعائلة

تعتمد ثيمة الثّورة على العلاقة بالعائلة؛ فالشَّخصيّة الثّائرة من أجل حقّ من حقوقها، تضحي بالقرابة؛ تقديمًا لقيمتها الفرديّة، على أيّة قيمة جمعيّة أخرى، ومنها الدّم، أو النّسب. وأبرهنُ على ذلك بقصةِ الهِجرس بن كليبٍ بن ربيعةَ[٥٤]، وأمِّه أختِ جَسّاس[٥٥]. وكان الأخيُر قتل كليبًا، فعادتْ أختُه وهي حاملٌ، فولَدَتْ غلامًا ربّاه جَسَّاس، وزوّجه ابنتَه. ولم يكنْ الغلام يعرفُ غيرَ جَسّاسٍ أبًا له، إلى أنْ عرفَ الخبر، فاضطربَ، وسمع خالُه باضطرابِه، فعلِم أنّه ثائر لا محالة، وحاول أنْ يأخذَ منه عهدًا، ألّا يثورَ وأراد منه أنْ يدخلَ في الصّلح الذي دخلَ النّاس فيه، ولكنّه رفضَ، وقال: لا يتركُ الرّجلُ قاتلَ أبيه، وطعنَ جساسًا، وقتله. والثورةُ على العائلةِ وعلى صلة النّسب، تؤسّس تمثيلًا للذّات مُختَلِفا عن المتعارفِ عليه في الثَّقَافَة وفي السّرود التّقليديّة، يظهرُ في العنايةِ بالبعدِ النّفسيّ للشّخصيّة، كما في هذا المقطعِ الذي يُظهر أحاسيسَ الشَّخصيّات المُختَلِفة: (ودخلَ إلى أمّهِ كئيبًا، فسألتهُ عمّا به وأخبرَها الخبَرَ، فَلَمَّا أوى إلى فراشِهِ ونامَ إلى جنبَ امرأتِه، وضع أنفَه بين ثديَيها، فتنفسَ تنفسةً تنفط ما بين ثديَيها من حرارتِها، فقامتْ الجاريةُ فَزِعةً قد أقلتها رِعدة حتى دخلت على أبيها، فقصّتْ عليه قِصّة الهِجرس، فقالَ جَسّاس: ثائرٌ وربِّ الكعبة!)[٥٦].

ومثل هذه التّفاصيل النّفسيّة للشّخصيّة قليلةٌ في الأخبار التّقليديّة؛ إذ لا يلتفتُ الخبرُ للشّخصيّة، ولا لمشاعرها. ويكون التّركيز على الأفعال التي تنتظم في ثُنَائيّة دلاليّة حادة، مثل

(٥٣) الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج٢١، ص١٥٨-١٥٩.

(٥٤) كليب بن ربيعة التغلبي: أول من ملك من العرب، وكان سيداً شجاعاً. وكان أن قتل ناقة البسوس، خالة جساس بن مرة، فقتله الأخير فنشبت حرب البسوس الشهيرة بين قبيلتي تغلب بن وائل وبني شيبان وأحلافهما، واستمرت أربعين سنة، فكانت من أطول الحروب وأكثرها دموية.

(٥٥) جساس بن مرة: شاعر شجاع لقبه حامي الجار لأنه قتل كليباً بسبب تعديه على ناقة خالته البسوس وكانت مستجيرة به. توفي سنة ٥٣٤م. وكانت أخته جليلة زوجاً لكليب.

(٥٦) الأصفهاني، الأغَانِي (سابق)، ج٥، ص٦١-٦٢. وتنفط: احترق.

الخـير والشّر. أمَّا هنا فنجد ابتعـادًا عن الثُّنَائيّات، وتركيـزًا على الشَّـخصيّة، وعـلى تجربتهـا، غايته تأسيسُ سرديّة بديلة، قوامُها الاعتراضُ على الواقع، وعـلى الاتفاقـاتِ الجَمعيّة، أو على الواقـعِ المَعيش، كما تقولُ ماري روبـير، والانصرافُ عنه إلى العالم المَعثـور عليـه[٥٧]، الذي تتحقـقُ فيه قيمـةُ الذَّات وهُويتها. وهو عالمٌ بحسـبِ قصصِ الثّائرين يأتي بعد أنْ تكتشـفَ الشَّـخصيّة أنّها كانـتْ مخدوعةً، فتسـعى إلى الثّأر لنفسِـها مُتخلِصة مـن انتمائِها العائـليّ؛ لتحقيقِ وجودِهـا الفعـليّ، والوصولِ إلى عالمِها الذي تَستحقُّه.

استغلال الأهواء

في ثيمـة التّخطيـط، أو التّدبـير، يكـون المُخطِّط شـخصيّة غير الملك، أو الرّئيس، شخصيّة مساعدة، وتنتمي إلى فئة المَحكُومين. والأمثلة كثيرة، منهـا حكايـة قصير، مسـاعد جذيمةَ الأبـرش[٥٨]. وكانت الزّبّـاء[٥٩] قتلتْ الأول انتقامًا لأبيها، بعد أنْ أغرتـه بالزواجِ، فَلَمَّا وصلَ إليهـا عَزلته عن جُندِه، وقتلته. وكان قصيرٌ رافضًا ذهاب الأبرش إليها، غير أنّه فعل فقُتل، فقررَ أنْ ينتقمَ له بحيلةٍ دبَّرها تدبيرًا محكمًا. ولكنْ قبل ذلك كانت مَكيدة الزّباء، وكانتْ من تخطيطِ أختها التي قالت لها: لا تواجهي الأبرشَ حربًا؛ لأنّهُ قد يَقضي عليك قضاءً تامًا، (ولكن ابعثي إليهِ فاعلميه أنّكِ قد رغبتِ في أنْ تتزوجيه، وتَجمعي مُلكَكِ إلى مُلكه، وسـليه أنْ يجيبـك إلى ذلك، لأنّهُ إنْ اغترَّ ففعلَ ظفرتِ به بلا مُخاطرة)[٦٠]. والأختُ بلا اسم، ولا وظيفةٍ غير المُساعدة في التّخطيط. يقابلها قصيرٌ، وهو، أيضًا، شخصيّة ثانويّة بالنسبةِ للملك، أو ابن اختِه عمرو بن عَدي[٦١]، وليس له اسـم، بل وصـف؛ فهو قَصير، ولذا سـمي قصيرًا. ويعتمد في تخطيطِه على تشويه هيأته؛ فقد جَدَعَ أنفَه وأذنيهِ، ودخلَ على الزّباء، وقـال لها: (جَدعَ عمرو بن عديّ أنفي وأذنيّ فعرفت أنّي لن أكونَ مع أحدٍ أثقلَ عليه منـكِ، فقالت: أي قصير نقبلُ ذلـك منك، ونصرفكَ في بضاعتِنـا)[٦٢]. ثم فاز بثقتِها، وجمعَ لها الرّجال ووضعَهَـم كأنَّهـم البضاعةُ في أكيـاس، على ظهورِ الجمال، حتى أدخلَهم المَدينة، فقتلوا أهلَها، وقضوا على الزّباء.

والملاحظ أنّ المدخلَ إلى التّدبير هو استغلال الأهواء، وتحديدًا: الجنس والطّمع، اللذان يتحكمان بالطبقة الحاكمة، ويسـتغلُّهما المُسـاعد في تحقيق غايته، وكِتَابة قصته؛ فلـولا الأهواءُ لما وجدتْ أختُ الزّباء، ولمـا كان لقصيرٍ ذِكر. وهنا تتضمّنُ الأفعالُ السّرديّة، المتصلة بثيمة التّدبير، إشاراتٍ إلى طبيعة الفئات الثّانَويّة: النّفسـيّة، والذهنيّة، والسـلوكيّة؛ فأختُ الملكة لا تحبُّ الحربَ والقتل، وقصير يُحسنُ التّفكير والتّدبـير، ويعتني بتفاصيل الخطّة لتكون مقنعة، حتى لو ضحّى بأجزاءٍ من جسـدِه، وشـوَّه وجهَـه. وهمـا لا يتصرفـان إلا على وفـقِ الحكمة، وبطريقـةٍ تحقق النّتائج المطلوبـة، من فوز وظفَرٍ بالغايـة، وتلك التّفاصيل النّفسـيّة، والعقليّة، تميّز السّرديّـات البَديلَة. وقد وجدنا مثلَها في أخبار ثيمة الثّـورة، وكلّها تُحقّق غايتين، الأولى: الإشـادة بذات مُختَلِفة، لا تشـبه غيرها من التـي حرصتْ السّرودُ العَرَبيَّـة التّقليديّة على إبرازِهـا تابعةً، وبلا ملامحَ

(٥٧) مارت روبير، رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة: وجيه أسعد، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٨٧، ص١٢٤.

(٥٨) جذيمة الأبرش: أحد ملوك العرب، حكم أكثر مناطق العراق الحالي بين سنة ٢٠٧-٢٦٧م.

(٥٩) الزّباء: نائلة بنت عمرو، ملكة تدمر.

(٦٠) الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج١٥، ص٣١٦.

(٦١) عمرو بن عدي، ملك العراق بعد خاله الأبرش، توفي سنة ٣٠٠م.

(٦٢) . الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج١٥، ص٣١٧.

نفسـيّة، أو أدائيّة. والثانية: ضمنيّة، تضمر التّمردَ على سُنن المُجتَمَع، كما في ثيمةِ المُطَاوَلَة، وعلى العائلة كمـا في أخبـار ثيمة الثّـورة، وعلى السّـلطَة كما في ثيمة التّدبـير. والغايتان تعطيان السّرود التي عني الأصفَهَانيّ بتجميعهـا في الأَغَانِي هُويتها السّرديّة؛ إذ تختلـف في الصّياغـة، وفي تجسـيد الشَّـخصيّة، وتعطيانهـا قيمتهـا الثّقافيّـة؛ فأهميتهـا تكمن في تمردِهـا عـلى السّـلطَة بأشـكالِها، وفي مقاومتهـا للسرديّات الكُبرَى، المُعبرة عن تلك السّلطَة.

المُقَاوَمَة بالحبّ

في قِصـصِ الحـبّ مواجهـةٌ مـع تقاليـدِ المُجتَمَـع، كما في مجنونِ ليـلى[٦٣]؛ إذ يرفضُ أهلُها زواجَها بقيس، لأنّهُ تغزّل بها، مخالفًا التّقاليد التي تمنعُ تزويجَ المُشـهِر بالعائلة والقبيلة. وفي قصص الحبّ مواجهة مع تصوّر الأهل لمسـتقبلِ البنت، أو الابـن، كما في قصـةِ المُرقِّش الأكـبر[٦٤]، وابنةِ عمّه أسـماء. وأهلُها كانـوا يريدون لابنتهـم مَن يُعرف بالبأس، كما تقولُ القصة، فيذهبُ سـعيًا إلى المجد، وفي أثّنـاء ذلك يمـرّ بهم رجلٌ من مـراد، فيُغريهم بالمال، فيزوجونَه أسـماء ويرحلُ بها، وحين يرجعُ المُرقـش، يُقالُ له: إنّ الفتـاة ماتت، وإنّ هذا قبرُها، فيحزنُ، ويلازم القبرَ، إلى أنْ يعرفَ من أحد الصّبية أنّه قبرٌ وهميّ، صُنع لخداعِ العاشق، وعندها يذهبُ رفقة عبديه للبحثِ عن أسماء، فيمرضُ في الطّريق، ويتركُه العبدان، ويوصلُ هو رسـالة إلى أسماء، هي خاتمـه، يطلـبُ من راعي إبـلِ زوجِهـا أنْ يطرحَه في إنـاءِ اللبن الذي تـشربُ منـه. وإذ يفعل تعرف الخاتم، وترسـلُ زوجَها في طلب العاشق، فيحضره مُنهكًا إليها، ويموتُ بين يديها[٦٥].

والمواجهـة مَحكُومٌ عليها بالفشـل، في كلّ القِصَصِ التي ثيمتُها الحبّ. وهي كثيرةٌ في الأَغَانِي، وتنتهـي بموتِ العاشـق، أحدهمـا أو كليهما. وقد تكـون النّهاية صادمـة، كما في قصـةٍ قليلٍ حظُّها من الشّهرة، هي قصة عبد الله بن علقَمةَ وحبيشة. وهذه رفض أهلُه تزويجَها له، وقالتْ له أمّه: نزوجك ابنةَ عمّك، ثم منعها منه أهلُها، وحجبوها عنه، فَلَمَّا أكثرَ فيها الطّلب، سـعيًا وشـعرًا، قالوا لها: (عِديهِ السّرحةَ (شجرة عظيمة الطّول)، فاذا أتاكِ قولي له: نشـدتكَ الله إنْ كنتَ أحبَبتَني فواللهِ ما على الأرضِ شيءٌ أبغـضُ إليّ منـكَ، ونحنُ قريبٌ نسـتمعُ إلى ما تقولين، فوَعدَته وجلسوا قريبًا يستمعونَ، وجلستْ عنـد السّرحة، وأقبلَ عبدُ الله لوعدِها، فَلَمَّا دنا منها دمعتْ عينُهـا، والتَفتتْ إلى حيثُ أهلُها جلوس)[٦٦]. فعلم أنّها مُجبرةٌ على قولِها ذاك.

وفي معظـم قصص الحـبّ تكون المواجهة سـلبيّة؛ إذ يستسـلمُ العاشـقان للمُجتَمَـع والأهل، ويتـزوجُ أحدُهما غيرَ من يُحـبّ، أو ينفصلان كما في حالـةِ قيـسِ بن ذَريـح ولبنى[٦٧]. غـير أنّ ههنا مواجهـةً ضمنية يضمرُها خطابُ العاشـق، وهذه المَرّة مواجهة سـلطة الفاتحين، ممثلة بجيشِ خالد بـن الوليـد، الذي يلاحـقُ قبيلـة العاشـق المُتّهمة بالـرِدّة، ويقتـلُ رجالها، ويلاحـقُ ظُعُنًـا، ويقتلُ

(٦٣) مجنون ليلى: قيس بن الملوح، شاعر غزل أموي، توفي سنة٦٨هـ.

(٦٤) المرقش الأكبر: عمرو بن سعد بن مالك، شاعر جاهلي توفي سنة ٥٥٠م.

(٦٥) الأصفهانيّ، الأَغَانِي (سابق)، ج٦، ص١٢٩-١٣٣.

(٦٦) م.ن، ج٧، ص٢٨٣.

(٦٧) انظر: الأَغَانِي ج٩، ص١٨١-٢١٩. وفي قصة قيس بن ذريح ولبنى أن أهله، رغبة في أن يكون لهم عقب، ألحوا على قيس في تطليقها، مستغلين وصايا الدين بالوالدين، وكان الأب يقف في الشمس، فيأتي قيس فيظله بردائه حتى إذا جاء الليل دخل الأب البيت ودخل قيس إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي، واستمرت حاله مع أبيه حتى رضخ، ثم ندم، ثم ماتت فمات فدفن جنبها. وقيس بن ذريح شاعر غزل، أموي، توفي سنة ٦٨هـ.

السّـائرين بها، إلى أنْ يصلَ إلى إحداها، وفيه، يقول الـرّاوي: (غلامٌ وضيءٌ به صفـرة في لونه كالمَنهوك، فربطنـاه بحبلٍ وقدّمنـاه، لنقتلَه فقال لنا: هل لكم في خـير؟ قلنا: وما هـو؟ قال تدركونَ بـي الظُعن أسـفلَ الوادي ثـم تقتلونَني. قلنـا: نفعلُ، فخرجنا حتى نعـارضَ الظُعـن أسـفلَ الـوادي، فَلَمَّا كان بحيثُ يسـمعنَ الصّوتَ نادى بأعلى صوتِه: إسلمي حبيش عند نفادِ العيش. فأقبلتْ إليهِ جاريةٌ بيضاءُ حسناءُ، فقالتْ: وأنتْ فاسلمْ على كثرةِ الأعداءِ وشدّةِ البَـلاء)[٦٨]. وكأنّنـا هنـا إزاءَ إعادة كِتَابـة لتاريخ الصّراعـات السّياسـيّة في ذلـك الوقـت، ولصـورة الفاتحـينَ، أو المُناصريـن للحـقّ؛ إذ هم أعـداءُ تتمّ مقاومتهـم بالعاطفة وبالجسـد، الذي لا يبقى منه شيء لهم، كما يقول العاشق. وبذا لا تعود تصفيته بنافعة لهم. وإذ هم قتلة، لا يرقّ لهم قلب لعاشـق، ولا لإنسان. يقول الرّاوي: (فضَربنا عُنقَه، فتقحّمتْ الجاريةُ من خدرِها حتـى أتتْ نحوَه فالتقمتْ فاه، فنزعنا منها رأسَـه وأنَّها لتكسعُ (تضرب) بنفسِها حتى ماتتْ مكانَها)[٦٩].

وتبدو قصة الحبّ هنا، اسـتعارة، تضمرُ فضحَ مـا تنطوي عليـه سرديّات الفتـحِ التّقليديّة من عُنف، وقسـوة، وتجاهلٍ للإنسـان، والعاطفةِ، بالإفادة من ثيمة الحبّ، ومن حبكةِ الفشل الملازمة لها، التي تتشكلُ وتكونُ دالّة في تواطئها مع أنساق ثقافيّـة تَحتقر العاطفـةَ وتجسـداتها، مثل المرأة، أو المتورطـينَ فيهـا، مثل العاشـق، الـذي لا يخلو من تأنيثٍ تسـبغُه عليه القصة؛ فهو رقيق الجَسد، ضعيـفُ العقل، عاجزٌ عـن المواجهـة. ولكنّها، أي القِصَـص تلك، بامتلاكها قـوة الخطاب، تعمل على كِتَابـة تاريخهـا، وتاريـخ شـخصيّاتها، والتّعبير عن الانتهـاكاتِ ضدّهـم، وعن طرائقهـم الفعليّة، والكِتَابيّـة، في مُقَاوَمَـة السّـلطَة وسرديّاتها، وقبل ذلكَ إدانتها بفضح أفعالِها تلك، التي لا تحتفظُ بها الذاكرةُ العَامَّة، ولا تدوّنها التّواريخُ الرّسميّة.

الفرار من القرابة

تردُ ثيمـةُ الفِرار كثيرًا في أخبـار الأَغَانِي. وهي تشـيرُ في مسارها العامّ إلى مُفارقة الشَّخصيّةِ جماعتَهـا. وتتضمنُ إعادة النّظـر في قيم الجَمَاعَة، إعادة تتم سرديًّا، في التّفوق الجسـديّ، الذي يُنسب إلى الشَّـخصيّة، شـخصيّة هلال بن الأسـعر[٧٠] في قصـةِ فـرارِه، وتبدأ بمواجهـةٍ بينَه وبـين رجُلَين، اعتديـا عليه بالقـولِ، والفعل: (فتنـاولَ هلالُ يدَه (أحدهمـا)، فاجتذبَـه إليهِ ورَماه تحـتَ فخذه، ثم ضغطـهُ ضغطة، فنـادى صاحبه: ويحـك! أغثني قد قتلني! فدنـا صاحبه منه، فتناولـه هلال أيضًا فاجتذبَـهُ ورمـاهُ تحـتَ فخـذِه الأخرى، ثـم أخذَ برقابِهمـا فجعلَ يصكُّ برؤوسِـهما بعضا ببعض، لا يسـتطيعانِ أنْ يمتنعا منه)[٧١]. ثم تذهبُ القصةُ إلى تأكيد قوى الشَّخصيّة، الجسديّة، الخارقة؛ فهو حينَ يطلبُ منـه جَمَاعَة، مرّ بهم، مصارعتَه، يقولُ لهم: لا. فأنا ضيفكم، ولكن (اعمدوا إلى أشـدّ فحلٍ في إبلِكم وأهيبه صولة وإلى أشـدّ رجلٍ منكم ذراعًا، فإنْ لم أقبض على هامـةِ البعير وعلى يدِ صاحبكم، فلا يمتنعُ الرّجل ولا البعير حتى أدخلَ يدَ الرّجل في فـمِ البعير، فإنْ لم أفعل ذلك فقد صَرعتموني، وإنْ فعلتُـه علمتم أنّ صراعَ أحدِكم أيـسرُ من ذلك)[٧٢]. ويفعـلُ، فيقـرُّ له النّـاس بالتفـوق، متعجبين من خطوه وطولِ أعضائِه.

(٦٨) م.ن، ص٢٨٥.
(٦٩) م.ن.

(٧٠) هلال بن الأسعر: شاعر مخضرم، أموي عَبَّاسي، توفي سنة ١٣٠ هـ.
(٧١) الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج٣ ص٣٥-٦٧.
(٧٢) م.ن.

وتتكـرر الإشـارةُ إلى تفـوّق الشَّـخصيّة الجسـمانيّ، مرة ثالثة؛ لتأكيـدِ انتمائها إلى صورة الفحولـةِ والذكـورة التّقليديّـة، في النّسـق الثّقافيّ العَرَبيّ، ولكنّه انتماءٌ يوظّف في سـياق ثيمة الفرار، للتشـكيك في قيمةِ القرابة وأهميتهـا للفرد؛ فهلالٌ يضربُ رجـلًا، كان قد ضربَه، ويلاحقُـه بنو عمّه؛ لأنّ الرّجل كان قد اسـتجارَ بهم، ويُسلمونَه لقبيلة الأخـير، غير أنّه يَسـتعملُ قوته الجسـديّة، فيكسرُ قيدَه، ويفيدُ من معرفتِهِ بالمسـالكِ، فيفرُّ إلى اليمن، ناجيًـا من الموتِ. وهو يشـكّك، في خطابِهِ، بفاعليّة، وصدقيّة، قيـمِ القرابةِ والولاءِ والانتماءِ إلى الجَمَاعَة بالقول: (إنّي أنشـدُكم اللهَ أنْ أكونَ قد قتلتُ رجلًا غريبًـا طلبته بـِترةٍ تقتلونـي وأنا ابـن عمّكم)[٧٣]، ويوظـفُ قوته الجسـديّة لاختبار القيم السّـابقة، وللفـرارِ من الجَمَاعَة وقيمهـا؛ إذ الفرار يحتاج إلى قدرات اسـتثْنَائيّة، فقد كان يبعدُ، وينجو، ويكسرُ القيـد، ويسـلكُ المسـالك التي لا يُطمـعُ فيها، أو لا يسـلكُها النّاس العاديـون. والجسـدُ، عمومًا، هنا ميدانُ القوة، والمُقَاوَمَة، ووسـيلة الـصّراع الثّقافيّ؛ إذ تفشـلُ الجَمَاعَـة في تدجينِه وتطويعِه، وتفشـلُ في عقابِـه والقضـاءِ عليـه. وفي المقابلِ هـو ينتصرُ للذّات، ولفكرةِ الكرامة الفرديّة، التي تبرزُ، وتقوى، وتتشـكلُ في قصةٍ بديلـة، بعيدًا عن قيـم الجَمَاعَة وسرديَّاتِها.

الحرية أولا

تتّصلُ ثيمة الحُريّة بأبطالٍ مَغمُورينَ كليًّا، لا تذكرُ قصصُ الأَغَانِي المُخصَّصة لهم، أسـماءهم، وتكتفـي بألفاظ مثـل: رجل، أو عراقيّـة، أو فلان. وتعبّر قصصهم عن انسـجامٍ مع الذّات، ورغباتها. ومن أمثلتها قصة قريبٍ للشّـاعر نُصيب[٧٤]، طلبَ منـه أنْ يُحـرّرَه مـن العبوديّـة، وذلـك أنّ نصيبًا صارَ يربحُ من الشّـعر، ويدفعُ ثمـنَ عتقِ أهلِه من العبوديّـة، ففعلَ نُصيب، ولكنّه (مـرّ به يومًا وهو يزفنُ ويزمرُ مع السّودان، فانكرَ ذلك عليه وزجره، فقال لـهُ: إنْ كنتَ أعتقتَني لأكونَ كمـا تُريد، فهذا واللـهِ ما لا يكونُ أبـدًا، وإن كنـتَ أعتقتني لتصلَ رحمـي وتقضي حقّـي، فهذا واللهِ الـذي أفعلُه هو الذي أريده: أزفن وأزمر وأصنع ما شئتُ، فانصرف النّصيب)[٧٥].

وهنـا يظهر انحيـاز للرغبـة، وللمتعة، لا تحتفي بـه السّرود التّقليديّة، وللحرية الشَّـخصيّة بعامـة، بعيدًا عـن أيّة مُقيـدات اجتماعيّـة. ومثل هـذا الانحياز يتجلى في قصة رجـل من العَامَّة، غير معروف الاسم، يلقى ابن عائشة[٧٦] المغنّي، المعجب بنفسِه، الذي لا يُغني إلا للطبقة الحاكمة، وكان قد غنّـى توًا الخليفـة، الوليد بن يزيـد، وأطربه، فأمرَ لـه بثلاثينَ ألفَ درهم، وهدايا أخرى. ويسـألُه، أي الرّجـلُ، بعد أنْ يعـرفَ أنّه ابن عائشـة المغنّي: ما هـذا معك، فيقـولُ له: غنيتُ الخليفـةَ فأعطاني ما ترى، فيقولُ له: فهل تمنُّ عليّ وتُسـمعُني ما غنيتَه له، فيرفضُ المغنـي، ويتبعُه الرّجـلُ، ويبطئُ عليه المُغنّـي، علّـه ييأسُ وينـصرفُ، فلا يفعـلُ. وحين يُعييـه يأمرُ غلامَـه أنْ يُدخله، (فلما دخـلَ قال له ويلك! مـن أينَ صَبَّك اللهُ عليّ؟! قـال: أنا رجلٌ من أهلِ وادي القرى أشـتهي هـذا الغِنَاء. فقالَ له: هل لـكَ فيما هو أنفعُ لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مئتا دينـار وعشرة أثـواب تنصرف بهـا إلى أهلك. فقال لـه: جُعلت فـداءك! والله! إنّ لي لبُنيةً مـا في أذنِها، عَلمَ اللهُ، حلقةٌ من الوَرِقِ فضلًا عن الذهب، وإنّ لي

(٧٣) م.ن.

(٧٤) نصيب بن رباح شاعر أموي مشهور بالمديح والغزل، وكان عبداً أسود. توفي سنة ١١٣هـ.

(٧٥) الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج١ ص٣٥٠. يزفن: يرقص.

(٧٦) مُحَمَّد بن عائشـة، ولا يعرف له أب وعائشة أمّه، وكان من أفضل مغني عصره، توفي سنة ١٢٦هـ.

لزوجةً ما عليها، يشـهدُ اللهُ قميصٌ، ولو أعطيتَني جميـعَ ما أمرَ لـك به أميرُ المؤمنين عـلى هذه الخَلةِ والفقر اللذينِ عَرَّفتُكَهُمـا، وأضعفتَ لي ذلك، لكان الصّوتُ أعجبَ إليّ)[٧٧]. فاستجابَ له المغني، وغناه. ولما سـمعَ الخليفةُ بخبرِه أرسلَ في طلبِه، وجعلَهُ في ندمائِهِ، وبقيَ معه إلى أنْ مات.

وواضـحٌ أنّ القصـة البَديلَـة تعتمدُ ثيمة الحُرية بديلًا عن ثيمـة العبوديّة في الحكاياتِ التي طرفاهـا خليفـةٌ، أو شـخصيّة متفوقة، وإنسـانٌ عاميّ، أو أدنـى. وهي تسـتبدلُ المكافأة، المعروف في السّرديّـات التّقليديّة، أنّها الحافزُ للقول، شـعرًا ونثـرًا، بالمُتعـة، حتى مع وجـودِ الحاجـة الفعليّة للمُكافـأة. وهو مـا أكده خطابُ الشَّـخصيّة، الذي يستعرضُ ما يُعانيه من فقر شديد، وحاجة إلى المال، ويوازنُها برغبتِه في سماع الغِنَاء، فيقدّم الثّانية على الأولى. وهـي من ذلك كلّه، أي القصة، تقدّم للقارئ شخصيّة غير المُعتادة في السّردِ التّقليديّ، وتكسرُ، في موضوعِها وخطابِها، هيمنةَ نسقِ الاستجداءِ السّائد في عمليَّة إنتاج، وتلقي، المُنتج الثّقافيّ، شعرًا وغِنَاء.

سياسة العقاب

ثيمـة القتل لها حيز غـير قليل في قصص الثّانَويّينَ في كِتَاب الأَغَانِي، وشـخصيّاتها ثانويون، أي يُنظـر إليهم نظرةَ ازدراء. وهم في نظر الجَمَاعَة خارجون عليها، أو صعاليـك[٧٨] باللفظ التّقليديّ، مثل تَأبَطَ شَرًّا، والسُّليك بن السّلكة[٧٩]، أو مُلونون، وقبيحـو الشّـكل، مثـل الشَّـنفَرى[٨٠]، الـذي كان سـبيًا، ومـن أقبح النّـاس وجهًا، كمـا يقول راوي قصته، وقد جرؤ فتزوج ابنةَ سـيدِه، فرأت القبيلة في ذلك عارًا عليها، فقتلـت الرّجل، أبا الفتاة، وكانَ الشّـنفرى وعدَه: إنْ قتلته القبيلة يقتلْ بِهِ مئة رجلٍ منهـا، وحينَ يعلـمُ أنّ الرّجل قُتل، ينتقـمُ له بقتلِ تسـعة وتسـعين رجلًا، إلى أنْ تمكنوا منه: (فقتلوهُ وصلبـوهُ، فلبث عامًا أو عامـين مصلوبًا، وعليه من نذره رجلًا، فجاء رجل منهم كان غائبًا فمرَّ به، وقد سَـقط فرَكضَ رأسَـه برجلِه، فدخلَ فيها عظمٌ من رأسِه، فعُلّتْ عليه فماتَ منها، فكانَ ذلك الرّجلُ هو تمامَ المئة)[٨١].

وأفعـال ثيمة القتـل: الرّحلـة، أو الحركة من مكان إلى آخر فرارًا أو ثارًا، في اسـتعارةٍ سرديّة كبرى[٨٢]، تشـيُر إلى رغبة الإنسـانِ المتميز، صاحبِ الوعيّ، الإنسـانيّ، بمأزق المَصير ومُشكلة الوجود، في أنْ يتفـوّق على قدره، أو يصنعَ مجدًا شـخصيًّا، ويُخلّـدَ، عـن طريـق الحكايـة. وثقافيًّـا تتضمن القِصَـص بعدًا عقابيًا، يوقعه الفـرد على الجَمَاعَة، أو الشَّـخص المنبـوذُ عـلى الأشـخاصِ المنتمين إلى الجَمَاعَـة، وأعرافها، ومواقفها من الآخـر المُختَلِف عنها وعيًّـا، أو عِرقًا، أو لونًـا. ويتمثّل ذلك العقابُ في اسـتعارةٍ، تتكررُ في أكثر من قصة، منها في قصة تَأبَـطَ شَرًّا، الذي يُقتلُ في منازلةٍ، ويُتركُ على الأرض

(٧٧) م.ن، ج٢، ص١٢٧-١٢٨. الخَلة: الحاجة.

(٧٨) يُنظر: الدكتور يوسف خليف، الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهـلي، دار المَعَـارِف، مصر، ط٣. إذ يعـرف الصّعاليك قائلاً: إنهم المشاغبون المغيرون الذين لهم أسلوب يسلكونه في الحيـاة لتغيير وضعهم الاجتماعي ص٢٥-٢٧. ويشـير الى مشـكلة هؤلاء مع مجتمعهـم ووضعهم الطبقي فيه؛ إذ ينتمون الى الفئة الفقيرة، وذلك يجعلهم أمام أمرين لا ثالث لهما، إما القبول باحتقار الأغنيـاء لهم والقبول بوضعهم، وإما الخروج على مجتمعهـم طلباً لحياة حرة كريمة أبية، وقد اختاروا الثّانية، ليتمـردوا على المجتمع، ويخرجوا على قوانينه ص٣٣-٥٥.

(٧٩) . السليك بن عمرو بن سنان اشتهر باسم أمّه سلكة وكانت أمة سوداء. شاعر جاهلي.

(٨٠) الشنفرى، ثابت بن أواس، شاعر جاهلي، توفي سنة ٥٢٥م.

(٨١) الأصفهانـيّ، الأغَانِي (سـابق)، ح٢١، ص١٩٤. وركضه: ضربه.

(٨٢) الاستعارة السردية الكبرى أعني بها قصة أو حكاية تنتظم عـلى ثيمة من ثيمـات الأدب الكبرى. ومن أشـهرها ملحمة جلجامش، وتنتظم على ثيمة البحث عن الخلود.

(ثم لا يأكلُ منه سبعٌ ولا طائرٌ إلا مات)[٨٣]، هي: استعارة الأثر الباقي.

والمُلاحظ أنّ ثيمةَ الموت في قصصِ الأَغَانِي تَسعى ببُعدِها العقابيّ، الذي يُسلب من المُجتَمَع، ويُمنحُ للمقتول، إلى تقويضِ الأنساق الثّقافيّة القبليّة، التي تجعلُ العقوبةَ للخارجِ على قيمِ الجَمَاعَة؛ فهي هنا توقعُ العقابَ على المُنتمين إليها، والمُدافعين عن قِيمِها، وتمنحُ الشَّخصيّة ذات النّزوعِ الفرديّ، فكرًا وموقفًا، أثرًا اعتباريًّا، يتأتّى من استعارة الأثر الباقي، ممثلة في الجثة التي تقتلُ قاتليها حتى بعد موتِها. وهي استعارةٌ تضمر تأكيد تأثيرِ الأفراد الاستثنَائيّينَ في المُجتَمَع، والقرّاء، والثَّقَافَة، المؤكد والمستمر، الذي يشكّل مُقَاوَمَة بالحكايةِ، وبالقِصَص، لسلطةِ الثَّقَافَة الماديّة والمعنويّة.

المُقَاوَمَة بالنّسيان

تجسّدُ ثيمة النّفي فِعلَيْ العقاب والمُقَاوَمَة، في ثُنَائيّة: سلطة وثانويين. وشخصيّات الثّانَويّينَ في قصص هذه الثّيمة هم الآخر، المُختَلِف في الميول الجنسيّة، (المُخنثون) في الأدبياتِ التّقليديّة، مثل هيت المُخنث، ونَفَاهُ النّبيّ؛ لأنّهُ كان يدخلُ على النّساء، ويَصفهنَّ وصفًا تفصيليًّا، يعرضُ فيه المستور من أعضائِهنَّ وأجسادهنَّ. وظل منفيًا إلى عهدِ الخليفة عثمان، حيث كبرَ وضَعفَ بصرُه، فسمحَ له بالدخولَ إلى المدينةِ كلّ جمعة، يسألُ، ويرجعُ إلى منفاه[٨٤]. ومواجهة الشَّخصيّة للمُجتَمَع الذكوريّ تكون بالتحديقِ وفضحِ المستور؛ فالاطلاعُ على حريمِهم، يضعفُ الذكور، ويسلبُهم قوتَهم المعنويّة، ويسهّلُ على الأعداءِ افتراسَهم.

وقصةٌ أخرى بطلها (مُخنث) من أهلِ المدينة، يأمرُ الخليفةُ عمر بن عبد العزيز بإحضاره إليه، فيدخل: (خضيب اللحيةِ والأطرافِ مُعتجر بسبنية قد حمل دُفًا في خريطته)[٨٥]. والقصّة تركزُ على التباس هُويته؛ فهو رجلٌ في زيّ امرأة وهيأتها، لتظهر المسافةُ بين السّلطَة التي يمثلُها الخليفة، وهي سلطةٌ ذكوريّة مبنية على التّمييز الحادّ بين الـ(نحن)، والآخرِ المُختَلِف، جنسًا وميولًا جنسيّة، وبين الذَّاتِ الآيديولوجيّة المُتعالية، والذّات المتحققة، في ميولِها البيولوجيّة والنّفسيّة، وفي سياقِها الاجتماعيّ والاقتصاديّ. وهي مسافةٌ يزيدُها الحوارُ وضوحًا، ويبرزُها. قال له عمر: (أتحفظُ القرآنَ؟ قال: لا واللهِ يا أبانا. قال: قبَّحكَ اللهُ! فأشارَ إليهِ مَن حَضَر فقالوا: اسكتْ. فسَكَت، فقال له عمر: أتقرأ من المفصل شيئًا؟ قال: وما المفصل؟ قال: ويلك! أتقرأ من القرآنِ شيئًا؟ قال: نعم. أقرأ (الحمد لله) وأخطئ فيها في موضعين أو ثلاثة... قال: ضَعوه في الحبس ووكلوا به مُعلمًا يعلّمُه القرآن)[٨٦]. والمُلاحظ أنّ الخليفة يمتلكُ سلطة الكلام، ويتواطأ معه الجُمهور. ولا يمتلكُ الآخرُ إلا التّعبيرَ بصدقٍ عن نفسِه، وإلا طاعة الخليفة فيما أراده. أمّا الرّدّ، أو المُقَاوَمَة فتكون بالنسيان؛ إذ كلما عُلّم سورة نسيَ التي قبلها، إلى أنْ يئسَ منهُ الخليفةُ، وقال: لو أعطينا هذه الدّراهم لمُحتاجٍ لكانَ أصلحَ، ثم أمرَ به فوُجِئتْ عنقُه ونفاهُ. فاندفع يُغنّي.

وهنا يكون رفضُ الثَّقَافَة الذكوريّة، لكلّ عيبٍ يلحقُ بالجسد المذكر، ويدنّسه، أو يضعفُ صورته النّمطيّة، شديدًا، بألفاظ تحقيريّة، يقابلهُ سكوتُ الآخر. ثم تلحقُ الرّفضَ محاولة التّهذيب،

(٨٣) الأصفهانيّ، الأغَانِي (سابق)، ج٢١، ص١٦٨.
(٨٤) م.ن، ج٣، ص٢٠.

(٨٥) م.ن، ج٦ ص١٣٧. والسبنية إزار حرير أسود تلبسه النّساء.
(٨٦) م.ن. ج٦، ص١٣٨.

المُمكن مقاومتها بالنسيان، الذي يشكّل مواجهة نفسيّة لسلطة الثَّقافَة، المُعتمِدة كليًّا على الذّاكرة، وعلى التّلقين، وقوة النّص، في مقابل العقل والعاطفة، وتحقّق الإنسان، الزّمانيّ والمكانيّ، وعلى الحفظ، والحفاظ على المنقول، لتقليل الانحراف، أو الابتعاد عن الثَّقافَة الأصلية وأنساقها. والنّسيان هنا يكسر هيمنة الأنموذج اللغويّ والقيميّ، المُعزِز للثقافة، ويبرز قوة الذَّات المقموعة والمُهمَشة، النّفسيّة والشَّخصيّة، فهي لا تنصاع للسلطة، ولا تقبل تأثيراتها، وتتمسكُ بخصوصيتها، وبما تحبّ، وبطريقة عيشها. وهي في المُحصلة تشكّل عبر السّرد هُويتها الشَّخصيّة، المُختَلِفة، ومنها تتشكّل الهُوية السّرديّة، المتمثلة في قصص بديل يحكي عن فئة المَنفيينَ، الذين لا صوتَ لهم في الثَّقافَة الذكوريّة، ولا تمثلُهم السّرودُ التّقليديّة، كما هم، ولكنْ كما تنظرُ إليهم هي، وبطريقة ازدرائيّة.

النقش على وبالجسد

يصعبُ إهمالُ ثيمة الرّغبة الجنسيّة في الكِتَابة عن السّردِ العَرَبيّ القديم. ولعلّها يَسهلُ توظيفُها في سياق القِصَص البَديلَة؛ لأنّ القِصَص التي تحكي عن المرأة، ورغباتها، وعواطفها، هي قصصٌ بديلة، تعملُ في موازاة قَصَص مَركَزيّ ينتمي إلى السّرديّات الكُبرَى، ذكوريّة المُحتوى والتّشكّل، يحتقرُ رغباتِ المرأة، ولا سيَّما الجنسيّة، ويراها مَنقصَة، وأصيلة في طبيعتِها؛ فأغلبُ قِصص المرأة، قصصٌ بديلة؛ لأنّ ثيمتها الرّغبة الجنسيّة، ولأنّ البطلَ فيها منتمٍ إلى فئةٍ من فئاتِ الثّانَويّينَ، هي المرأة. والملاحظ أنّ نسبتَها، أي قصص المرأة، إلى نسبةِ قصص الثّانَويّينَ الأخرى في الأَغَانِي، التي مرّ ذكرُها هنا، كبيرة نسبيًّا. وهذا في ذاته أمر يشيرُ إلى اهتمام الأصفَهَانيّ بها.

وتنتظمُ قِصصُ المرأة في ثيمة الرّغبة الجنسيّة؛ فهند[٨٧] بنت النّعمان، ترتّب أمرَ زواجِها من عَدي بن زيد[٨٨]، فقد رأته (وهو يمازحُ الفتيانَ الذين معه، وقد برعَ عليهم بجمالِه وحُسنِ كلامِه وفصاحتِه وما عليه من الثّياب، فذهلت لما رأته وبهتتْ تنظرُ إليه... وانصرفتْ وتبعته نفسها وهويته)[٨٩]. ثم تُعلم أباها أنّها لن تستطيعَ إلّا أنْ تتزوجَ عَديًا، وتطلبُ من عَدي أنْ يخطبَها من أبيها، ويفعلُ، ويتم الزّواجُ. تلوّح القصة في نهايتها بعقوبة تقع على هند؛ إذ تَترهّب بعد مقتلِ عَديّ، وتحبسُ نفسها في الدّير، وقاتلُ عَديّ هو الملكُ النّعمان، أبو هند، وتُلمّح العقوبة إلى ضرورة إيقاعِ العقابِ على من تصرّح برغباتها الجسديّة.

وفي قصة ثانية بطلتها النّضيرة بنت الضَّيزن[٩٠]، يحضر الجسدُ، ويكون مدار اختبار العلاقة الأبويّة؛ إذ الأب رمزٌ للقيم والتّعاليم التي تقفُ ضد الرّغبة، وهو رمزُ الهيمنة والسيطرة والسلطة، وقتله قتل النّظام الأبويّ[٩١]. وهي ترغبُ في سابورَ القائد، القادم لاحتلالِ مملكةِ أبيها-تقول القصة رأته وعشقته فأرسلت إليه-وتعطيه طلّسم دخولها: (عليكَ بحمامةٍ مُطوقةٍ ورقاءَ فاكتبْ في رجلَيها بحيضِ جاريةٍ بكر تكونُ زرقاءَ ثم ارسلْها فإنّها تقعُ على حائطِ المدينةِ فتتداعى المدينةُ كلّها)[٩٢]، فيدخلُ المدينة ويقتلُ الأبَ، وتصيُر عنده،

(٨٧) هند بنت النّعمان بن المنذر آخر ملوك المناذرة في الحيرة. وكانت شاعرة أدركت الإسلام وترهبت.

(٨٨) عدي بن زيد: شاعر جاهلي وداهية، قتله النّعمان بن المنذر سنة ٦٠٠م، لوشاية به عنده من خصومه، وكان من أقرب المقربين منه والناصحين له.

(٨٩) الأصفهانيّ، الأَغَانِي (سابق)، ج٢، ص١٢٨.

(٩٠) النّضيرة ابنة ملك مملكة الحضر، وسقطت على يد الملك الساساني سابور الأول عام ٢٤١م.

(٩١) إبراهيم الحيدري، النّظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣، ص٢٧٤.

(٩٢) الأصفهانيّ، الأَغَانِي (سابق)، ج٢، ص١٤٢.

ثم ينجرحُ جسدها من خشانةٍ تكونُ في فراشها، فيدعو ذلكَ سابورَ إلى قتلها. وهنا يحيلُ الجسدُ إلى مالكه الثّقافيّ، وهو الأب الذي رعاه وغذاه فصار لينًا ترفًا، ويفترق كليًّا عن الرّغبة التي تعود للمرأةِ التي تفكّك الثَّقَافَة الأبويّة-استعارة الطّلسم-وتتجاوز النّسب الأبويّ، الثّقافيّ، إلى الانتساب الجسديّ.

ويفضحُ العقابُ الذي يقعُ على المرأة، أو الجَزاء السّيء الذي تلقاهُ من الرّجلِ المرغوب فيه، عيوبَ الثَّقَافَة الذكوريّة، وأبرزُها نظرتُها الارتيابيّة تجاهَ المرأة، وتسلطها عليها؛ فهي تجعل المرأة تولد من إجراءاتِ القصاص والعقاب والمُراقبة والإكراه[٩٣]. ويحضُر في أغلب قِصصِ النّساء في الأَغَانِي؛ إذ نجدُه أيضًا في قصة فاطمة بنت المُنذر[٩٤] مع المُرقش[٩٥]. وتبدأ الحكاية بالقلق الذكوريّ من المرأة وسوءِ الظنّ بها، وبالتشديد على حركتها؛ فهي تسكنُ في قصر محروس بعنايةٍ، يَجري الحرسُ كلّ ليلة حوله الثّياب، حتى لا يطؤه أحد غير أَمَةٍ لها، تدعى ابنة عجلان، يعرفُ القافة أثرَها. وذات يوم ترى فاطمةُ المرقّش فيعجبُها، فتصيرُ ابنة عجلان تُدخلُه إليها، مَحمولًا على ظهرها، بعد أنْ تَحزمه إلى بطنها بثوب، ولا يرى القافة إلّا أنّ بنت عجلان مثقلة، ولا يجدونَ تفسيرًا لذلك، يُخبرونَ به الملك.

والقصّة مدارُ اختبار سماتِ الرّجولة في الرّجل، ليس الذكورة. تقول فاطمةُ لبنت عجلان: (إذا كان غدًا وأتاكِ فقدّمي له مِجمرًا، ومُريه أنْ يَجلس عليه، وأعطيه سواكًا فإنْ استاكَ به أو ردّه فلا خير فيه، وإنْ قعدَ على المجمر أو ردّه فلا خير فيه، فأتته بالمجمر فقالت له: أقعد عليه، فأبى، وقال: ادنيه مني، فدخّن لحيته وجمته وأبى أنْ يقعد عليه، وأخذ السّواك فقطع رأسه واستاك به)[٩٦]، فتعجبُ به فاطمةُ، وتصير تدخلُه عليها. ولكنّه اختبار يدحضُه الجسد، المُستبعَد من السّرديّات التّقليديّة، وفي الواقع هو الأكثر قدرةً على كشف تناقضات الرّجل، وتمزّقه بين القيمةِ والجسد، فالمرقّشُ يُطلعُ صديقه على ما يعملُه مع فاطمةَ، ويقبل بحيلة أنْ يحلّ مَحلّه في لقائِه معها، فيدخلُه عليها، ظنًا منه أنّها لن تعرفَ الفرقَ بين الرّجلين، وكانا متشابِهَين سوى أنّ الصّديق كان أشعر، (فلما أراد -الصديق- مباشرتها -فاطمة- وجدتْ شعرَ فخذَيهِ فاستنكرته)[٩٧]، وغضبتْ، وطردته.

يحضرُ الجسدُ الثّقافيّ في سياق المُواجهة؛ فالنسويّ منه يحيل إلى الملكية، وإلى مبدأ الخيانة المَنسوب إلى المَرأة، والمتوقّع منها. والذكوريّ منه يحيلُ إلى قيم الرّجولة؛ فهو الوسيلةُ لاكتشاف خلل في أخلاقِ المرقش، التي تم اختبارُها، ذلك هو فضح السّرّ. تبقى أنّ مَن يوقع العقوبةَ في حالة المرأة هو الرّجل، سابور في قصة النّضيرة: (ثم أمرَ رجلًا فركبَ فرسًا جموحًا، وضفرَ غدائرها بذنبِه ثم استركضه فقطّعَها قطعًا)[٩٨]، وكانتْ العقوبة القضاءَ على الجسد كلّه، أو تهشيمه. وفي حالة الرّجل يكون هو نفسُه من يعاقب نفسَه: (فعض على إصبعِه فقطعَها، ثم انطلقَ إلى أهلِه وتركَ المال الذي كان مقيمًا فيه)[٩٩]؛ لأنّ الرّجل هو الموكل بمراقبة -سابور كان يراقب جسد النّضيرة- جسد المرأة ومعاقبتها، ولا تعاقب المرأة.

---

(٩٣) ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة: د. علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص٦٧.

(٩٤) فاطمة بنت المنذر الثّالث، ملك الحيرة من ٥١٤ إلى ٥٥٤م.

(٩٥) المرقش: المرقش الأصغر ربيعة بن سفيان، شاعر جاهلي، توفي سنة ٥٧٠م.

(٩٦) الأصفهانيّ، الأَغَانِي (سابق)، ج٦ص١٣٧.

(٩٧) م.ن، ج٦، ص١٣٨.

(٩٨) م.ن، ج٢، ص١٤٣.

(٩٩) م.ن، ج٦ ص١٣٨.

وفي الأحـوال، كلّهـا، نجـد ثيمـة الرّغبـة مرتبطـة بالجنـس، وبالجسـد. وللشـخصيّة الأساسـية، وهي المرأة فيها اختيار الرّجل، وترتيب الـزّواج به، ولهـا فيها صـوتٌ، ورأي، وموقفٌ، قلّ أنْ تظهـرَه الجنسـانيّة العَرَبيَّة التي تـودعُ صوتَ المـرأة، ومواقفهـا، لسـانَ الرّجل، يتـصرفُ بهما، تبعًـا لَمركزيّتـه، ودورِه الثّقـافيّ[١٠٠]. وهـي تضمرُ نقدًا للأنسـاقِ الثّقافيّة التي تظلـمُ المَرأة، وتعاقبُها على رغبتها، وتشـكيكًا في قيـمِ الذكورة؛ فهي قابلةٌ للاختراق. وفي المُحصلة تشكّل ثيمة الجنس قصصَ النّسـاء، في كثيرٍ من كِتَاب الأَغَانِي، بوصفِه قَصَصًا بديـلًا، تفصحُ فيه المـرأة عن رغباتِها وشـهواتها، وعن عيوب الثَّقَافَة الذكوريّة، وتناقضاتِها.

الخَاتِمَة

توصـل البَحـث إلى أنّ القِصَـص، الواردةَ في كِتَاب الأَغَانِـي، يمكن ادراجُها في خانة القِصَص البَديلَة التي تجسـد هُوياتٍ تعـود لثانويين، كانوا في السّرديـاتِ التّقليديّـة، مُهمشـين، ولا يُلتفـتُ إلى صوتِهـم، ولا إلى وجودهـم. أمَّـا أهـم الثّانَويّينَ فإنّهم المنبوذونَ، والثائرونَ، والفارُّونَ، والعشـاق، والمخططونَ، والمغمورونَ، و(المخنثونَ)، والنّسـاء. وجميعهم، انطوت قصصهم على تعبير عن رغباتهم، وعن خصوصياتهم الوجوديّة، والنّفسيّة، والذهنيّة، وتضمنت خطابًا ناقدًا للأنساق الثّقافيّة، مثل نسق الذكـورة، والعائلـة، والقبيلة، ومقاوِمًا لسـلطتها، مدافِعًـا عـن حقّهم في الـكلام والفعـل. وكلّها، أي تلك القِصَص، شـكّلت هُوية كِتَاب الأَغَانِي، بوصفه كِتَاب ثانويينَ، وفّر له السّياق التّاريخيّ الذي عاش فيه مُؤَلّفه، وهو سـياقٌ تراجعتْ فيه سلطةُ المركز، المتفوِّق إثنيًا، ونَسبيًا، لصالح الأقليات، والمُحتقرين إثنيًـا، إمكانيـةَ اسـتعادةِ أصـواتِ المُحتقريـنَ، والمرفوضـينَ، ثقافيًّـا، واجتماعيًّـا، وسياسـيًّا، وتوظيفهـا في إنتاج كِتَاب ذي فـرادةٍ تاليفيّة، وذي قيمة ثقافيّة؛ إذ ينطوي على موقفٍ سـياسيّ منحاز إلى الثّانَويّـينَ، وإلى المَحكُومـينَ، وموقـف ثقافيّ من الصّراعـات الثّقافيّة، يضمر تحريضًا عـلى الثَّقَافَة التّقليديّـة، وسرديّاتهـا، ورموزهـا، وخطاباتِهـا، وأساليبِها في المراقبة، والمعاقبة، والإقصاء.

(١٠٠) د. هيثم سرحان، خطاب الجنس، مقاربات في الأدب العَرَبيّ القديم، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ٢٠١٠، ص١٨٧-١٨٨.

مصادر ومراجع

المصادر:

- ابن النّديم: مُحَمَّد بن إسحاق ، الفهرست، دار المعرفة، بيروت-لبنان.
- الأصفهانـي: أبـو الفَـرَج، الأَغَانِـي، إشراف: مُحَمَّـد أبو الفضـل إبراهيم، الهيئـة المِصريّة العَامَّة للكِتَاب، القاهرة، ٢٠١٠.
- البَغـدَاديّ: الخطيـب، تاريخ بَغدَاد، دراسـة وتحقيـق: مصطفـى عبـد القادر عطـا، دار الكُتُب العلمية بيروت-لبنان، ط٢/ ٢٠٠٤.
- الحَمَـويّ: ياقـوت، مُعجَـم الأُدَبَـاء، تحقيق: الدّكتور إحسان عَبَّاس، دار الغرب الإسلَاميّ، بيروت، لبنان، ١٩٩٣.

المراجع باللُّغَة العَرَبيَّة:

- إبراهيم: عبد الله، موسـوعة الـسّرد العَرَبيّ، المؤسسة العَرَبيَّة للدراسـات والنّشر، بيروت، ٢٠٠٥.
- الأصمعـي: مُحَمَّـد عبد الجـواد، أبـو الفَرَج الأصبَهَانـيّ وكِتَابه الأَغَانِي، دراسـة وتحليل لأزهـى العُصُـور الإسـلَاميّة، دار المَعَـارِف بمصر، القاهرة، ١٩٥١.
- جـبري: شـفيق، دراسـة الأَغَانِـي، مَطبَعَـة الجامعة التّونسية، دمشق، ١٩٥١.

- حسين: طه، حديث الأربعاء، دار المَعَارِف، مصر، ج٢.
- حسين: طه، في الأدب الجاهلي، دار المَعَارِف، مصر، ط١٢.
- خلف الله: الدّكتور مُحَمَّد أحمد، صاحب الأَغَانِي «أبو الفَرَج الأصفهاني الرّاوية"، مَكتَبَة الانجلو المِصريَّة، القاهرة، ط٢/١٩٦٢.
- خليف: الدّكتور يوسف، الشُّعَرَاء الصّعاليك في العصر الجاهلي، دار المَعَارِف، مصر، ط٣.
- زيدان: جُرجِي، تاريخ آداب اللُّغَة العَرَبيَّة، دار الهلال، القاهرة، ج٢.
- سرحان: د. هيثم، خطاب الجنس، مقاربات في الأدب العَرَبيّ القديم، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ٢٠١٠.
- سلوم: داود، منهج أبي الفرج الأصفهاني في كِتَاب الأَغَانِي، دراسة في النَّصّ والسيرة، مَطبَعَة الايمان، بَغدَاد، ١٩٦٩.
- ضيف: شوقي، العصر العَبَّاسي الأول، دار المَعَارِف، مصر، ط٨.
- ضيف: شوقي، العصر العَبَّاسي الثّاني، دار المَعَارِف، مصر، ط١٠/١٩٩٦.
- كاظم: د. نادر، الهوية والسرد، دراسات في النّظرية والنّقد الثّقافي، دار الفراشة، الكويت، ط٢/٢٠١٦.
- الموسوي: محسن جاسم، سرديات العصر الإسلَاميّ الوسيط، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ١٩٩٧.
- ناصف: د. مصطفى، محاورات مع النّثر العَرَبيّ، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧.

المراجع المترجمة:

- بروكمير: جينز ودونال كربو (تحرير)، السّرد والهوية، دراسات في السّيرة الذّاتية والذات والثَّقَافَة، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، مؤسسة هنداوي، لندن.
- جالبرت: جون كينيث، تشريح السّلطَة، ترجمة: عَبَّاس حكيم، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩٣.
- روبير: مارت، رواية الأصول وأصول الرّواية، ترجمة: وجيه أسعد، منشورات اتحاد الكِتَاب العرب، دمشق، ١٩٨٧.
- سعيد: ادوارد، الثَّقَافَة والامبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧.
- فوكو: ميشيل، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثّقافي العَرَبيّ، بيروت، ط٢/١٩٨٧.
- فوكو: ميشيل، المراقبة والمعاقبة، ولادة السّجن، ترجمة: د. علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠.